منصة التأصيل

مقرر

منهج التلقي والاستدلال

مدرس المقرر

فضيلة الشيخ

أ.د. عثمان بن علي بن حسن علي

أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى سابقًا

منقول من الشرح المرئي المبثوث على المنصة

موع للدراسات العقدية

موسوعة الدراسات العقدية

١٤٤٦هـ-١٤٤٧هـ

مُقَرَّرُ

مَنهجُ التَّلقِّي والاستِدلالِ

مُدَرِّسُ المُقَرَّرِ

فَضِيلَةُ الشَّيخِ

أ.د. عُثمانُ عَليّ حَسَن عَليّ

أُستاذُ العَقيدةِ بجامِعةِ الإمامِ مُحمَّدِ بنِ سُعودٍ

وَجامِعةِ قَطَر وجامِعةِ أُمِّ القُرى

مَنقُولٌ مِنَ الشَّرحِ المَرئِيِّ المَبثُوثِ عَلى المَنصَّةِ

جَمِيعُ حُقُوقِ ٱلطَّبْعِ وَٱلنَّشْرِ
مَحْفُوظَةٌ لِمَنَصَّةِ ٱلتَّأْصِيلِ
وَلَا يُسْمَحُ بِٱلِاسْتِخْدَامِ ٱلتِّجَارِيِّ

مُقَرَّرُ

مَنْهَجُ التَّلَقِّي وَالاسْتِدْلَالِ

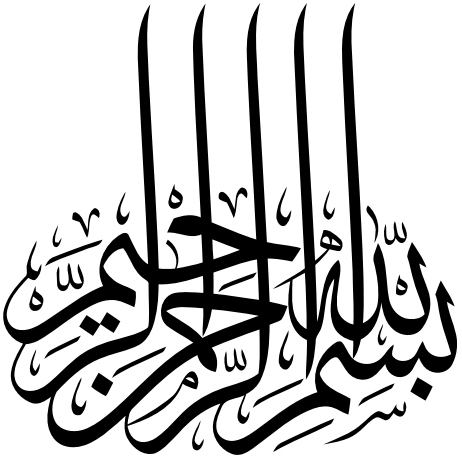
بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

الحمدُ للهِ الذي هدانا للحقِّ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره على نعمة الإسلام، وأصلي وأسلم على نبيِّنا محمدٍ، خير من تلقى عن ربه الوحي واستدل بهديه على سبيل الهدى والرشاد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ العقيدةَ الإسلاميةَ هيَ الأساسُ المتينُ الذي يُبنى عليهِ دينُ المسلمِ وحياتُه، وهي النبعُ الصافي الذي يُغذِّي الروحَ بالإيمانِ الصادقِ واليقينِ الراسخِ. وقد كانت نصوصُ الوحيِ الكريمِ، من القرآنِ والسُّنَّةِ، هي المنبعَ الأوَّلَ الذي استقى منه السلفُ الصالحُ عقائدَهم، فكانوا على منهجٍ راسخٍ قويمٍ يبتغي الحقَّ ويتجنبُ الضلالَ، ويتحصَّنُ بآياتِ اللهِ وأحاديثِ رسولهِ صلى الله عليه وسلم.

وانطلاقًا من هذا المبدأ، تأتي هذه المادةُ التعليميةُ تحت عنوان "منهج التلقي والاستدلال في العقيدةِ الإسلاميةِ"، لتتناولَ

بالدراسةِ والتحليلِ المنهجَ الذي سار عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ في تلقي العقيدةِ وفهمها والاستدلال عليها. وهي مادةٌ تسعى إلى بيان أهميةِ العودةِ إلى النصوصِ الشرعيةِ كمصدرٍ أساسٍ لتلقِّي الإيمانِ وتثبيتِه، مع تسليطِ الضوءِ على الأخطاءِ والانحرافاتِ التي وقعت فيها بعضُ الطوائفِ التي انحرفت عن هذا المنهجِ القويم.

سيجدُ القارئُ في هذه المادةِ استعراضًا للتطوُّرِ التاريخيِّ للطوائفِ الإسلاميةِ، وأسبابِ ظهورِ الاختلافاتِ بينهم، مع التأكيدِ على أهميةِ التزامِ المنهجِ الصحيحِ في الاستدلالِ على العقيدةِ، والاعتمادِ على المصادرِ الأصيلةِ كالقرآنِ الكريمِ والسنةِ المطهرةِ، والتمييزِ بين الاجتهادِ المشروعِ والتأويلِ الباطلِ.

كما تتناولُ المادةُ بيانَ خصائصِ النصوصِ الشرعيةِ، كسلامتِها من التحريفِ، ووضوحِ حجيتِها، ومراعاتِها للعقلِ السليمِ الذي جاء الإسلامُ ليُرشِدَهُ ويهديَهُ إلى الصراطِ المستقيمِ، لا أن يكونَ خصمًا له وغيرها من القضايا، التي تمكِّن الطلابَ من التمييزِ بين التفسيراتِ السليمةِ والمغلوطةِ للنصوصِ الشرعيةِ، وتعرفهم بالطريقةِ التي حُفِظت بها النصوصُ ونُقِلَت عبرَ الأجيالِ، ودورِ الصَّحَابَةِ والتابعينَ في ذلك.

نسألُ اللهَ عز وجل أن يُعينَنا في هذا العملِ، وأن يجعلَه خالصًا لوجهِهِ الكريمِ، نافعًا للأمةِ، مباركًا في أثرِهِ. "رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ".

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

منصة التأصيل

الدَّرْسُ الأَوَّل

مَنهَج الاستِدلَال العَقدِيّ

❖ أهمية الوقوف عند مَنهَج الاستِدلَال:

نحتاج أن نقف عند مَنهَج الاستِدلَال، **والسبب في ذلك:** كثرة الاختلاف بين طوائف المسلمين وتنوع أقوالهم في مسائل العقيدة.

فمن المعروف أن المسلمين حتى وفاة النبي ﷺ وصدرٍ من عصر الصَّحَابَة ﷺ كانوا على منهاج واحد وسبيل مُتَّحِدٍ:

- ✓ في الاعتِقَادات والأحكام.
- ✓ وفيما يتعلق بأمور الإِيمَان.
- ✓ وفيما يتعلق بأمور الأحكام العملية.

فبينهم وِفَاق عِلْمِيٌّ واتّفاق عَمَلِيٌّ، مما يجعلهم أَوْلى الناس بالدخول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ [آل عمران:١١٠]، فدينُهم الذي يعتمدونه هو الكِتَاب والسنة:

- فعنهُما يسطِّرون، وإليهما يتحاكمون، وبهما يحتجُّون.

- فلم يُعرِضوا عن نصوص الوحي ولا عَارَضُوها.
- ولم يُعَطِّلوا أحكامه ولا حَرَّفوها.
- ولا يَقبلون من أحد –وإن علت في النفوس منزلته– مقالةً في الدين، حتى تكون موافِقَةً للكتاب والسنة.

فهكذا كان أصحاب النبي ﷺ ومن تربَّى على نهجهم من التابعين ومن تبعهم؛ حتى ظهرت الاتجاهات الشاذة تُطِلُّ برأسها على الواقع الإِسلَامِيّ.

أمثلة على الاتجاهات الشاذَّة:

١. الكلام في الصفات والقدر نفيًا وإثباتًا.
٢. الخوض في نصوص الوعد والوعيد التي تَعِدُ المؤمنين بالجنة والثواب وتَتَوَعَّد الكافرين والمخالفين بالعقاب والجحيم.
٣. مسائل الطعن في الصَّحَابَة رضي الله عنهم أو الغلو فيهم إلى غير ذلك مما كان الناس في عافية منه.

تطور الفِرَق وانتشار بدعتهم:

ثم لم تلبث هذه الاتجاهات التي كانت مجرد أقوال أن تطورت لتصبح فِرَقًا ونِحَلًا، لكل منها من الاعتِقَادات ما تخالف به جماعة المسلمين.

مثال: ظهور فِرَق مثل: الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة، ونحوها من الفرق.

ثم أخذت هذه الفرق نفسها في الانقسام والاختلاف، كل فِرْقة من هذه الفِرَق الكبار أخذت تختلف فيما بينها وتُكَوِّن فِرَقًا صغيرة، ولكلِّ فِرْقة مقالاتها واعتقاداتها التي تخالف بها نظيراتها، بل وتصفها بالضلال والكفر.

وهذه الفِرَق كما أشار الشَّهْرِسْتَانِي حيث قال: "يجمعها الاستبداد بالرأي في مقابلة النص واختيار الهوى في معارضة الأمر".

لكن الغريب أنه ما من فرقة إلا وتَدَّعي لنفسها أنها مُصِيبَة للحق وأنها تُحَقِّق مُرَاد الشارع، وأنها هي الفرقة الناجية الموعود بها في حديث الافتراق الذي فيه قال النبي ﷺ: **"وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة"**[1]؛ فتَدَّعِي كل فرقة أنها هي الواحدة التي كُتِبَت لها النجاة، وبعض هذه الفرق يستدل في مقالاته بالكِتَاب والسنة.

---

[1] أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٩٩١)، وأحمد في المسند (٨٣٩٦)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/٤٨٠): "إسناده جيد ورجاله ثقات".

أمثلة:

- **الخوارج والمعتزلة** الذين نسمِّيهم بالوعيدية يحتجون بحديث: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"[١]؛ فهذا أخرجوه من الإيمان بالكلية.

في مقابل **المرجئة** الذين يحتجُّون بحديث: "ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات إلا دخل الجنة"[٢]، فأولئك الوعيدية يُخرجون العُصَاة من الإيمان ويحرمونهم من دخول الجنة، وهؤلاء المرجِئَة يضْمَنُون لكل من قال لا إله إلا الله دخول الجنة.

- كذا **نفاة القدر** يحتجون بحديث: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"[٣].

وفي المقابل **الجبرية** مثبتة القدر المغالون فيه يعملون بحديث: "اعملوا فكُلٌّ ميَّسر لما خُلِقَ له"[٤].

---

[١] أخرجه البخاري (٦٠١٦).

[٢] متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).

[٣] متفق عليه، أخرجه البخاري (١٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨) باختلاف يسير.

[٤] متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

- **والمشبِّهة** الذين يُشبِّهون صفات الخالق بصفات المخلوق يحتجون بحديث: "خلق الله آدم على صورته"[١].

وفي مقابلهم **المعطِّلة** الذين ينفون الصفات ويعطلونها عن معانيها وما تستحقه يحتجون بقول الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، ولا يكملون الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

- **والرافضة** من الشيعة في إكفارهم لصحابة النبي ﷺ يحتجون بحديث: "يَرِد عَلَيَّ يوم القيامة رَهْطٌ من أصحابي فيُجلَون عن الحوض فأقول: يارب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتَدُّوا بعدك على أدبارهم..."[٢]، فالرافضة يعتبرون بهذا الحديث أن كثيرًا من الصَّحَابَة -غير آل البيت- خرجوا من الإيمان وارتدُّوا بعد موت النبي ﷺ.

- **والباطنية** يحتجُّون برواية: "القرآن له ظهر وبطن، ولبطنه بطنًا إلى سبعة أبطن"؛ فيتيحون لأنفسهم فرصة تأويل القرآن على غير تأويله.

---

[١] أخرجه البخاري (٦٢٢٧).

[٢] أخرجه البخاري (٦٥٨٥).

وهكذا الكل يدعي النجاة والكل يستدل بالكِتَاب والسنة، ومع ذلك هم مختلفون غير متفقين متنازعون غير مؤتلفين فكما قيل:

الناس شتى وآراء مفرَّقة كلٌّ يرى الحق فيما قال واعتقدا.

معرفة صفات الفرقة الناجية:

أولًا: المسلم يعلم أن القرآن حق وأن السنة حق، لكن لا يمكن أن يكون دليلًا للمقالة ونقيضها، ومستندًا للمذهب وضده.

ثانيًا: أن الرسول ﷺ أخبر أن الفرقة الناجية واحدة لا أكثر.

وهذه الفِرَق قد فاقت الحصر، بل هي الآن زادت على الاثنين أو الثلاث وسبعين فرقة وكلهم يدعي السلامة والنجاة.

فكيف نعرف المُحِقَّ من المُبطِل والصادق من المدَّعي؟

الجواب: أن رسالة النبي ﷺ هي الرسالة الخاتمة، وأن دعوته هي الدعوة الأخيرة، ومُحال أن يختلط الحق بالباطل اختلاطًا لا يتميز حتى لا يعرفه أحد ولا يهتدي إليه مهتد؛ ولهذا ذكر النبي ﷺ الوصف المميِّز للفرقة الناجية بحق، وهو:

الوصف الذي لا يشركها فيه أحد غيرها، وذلك عقب حديث الافتراق نفسه، فقد سأله أصحابه رضي الله عنهم وهم أحرص الناس

على الخير: أن يُعَيّن لهم الفرقة الناجية، فأجابهم ﷺ إلى ذلك، لكنه لم يقيدها -أي: الفرقة الناجية- بمِصرٍ ولا عصر، بل ذكر وصفًا جامعًا مانعًا فقال ﷺ: "ما أنا عليه وأصحابي"[1].

إذًا؛ فهذا هو الميزان الذي توزن به جميع الأقوال والأعمال، والاعتِقَادات، والأحوال، وغيرها.

وتوزن به أيضا جميع الفِرَق والنحل، فلا يكفي لأحد من الناس أو فِرْقة أن تدعي النجاة حتى تَعْرِضَ نفسها وأقوالها وأعمالها واعتقاداتها وأحوالها على هذا الميزان: "ما أنا عليه وأصحابي"، ولا يكفي أن يَستَدلَّ بالكِتَاب والسنة حتى يقف على فهم الصَّحَابَة رضي الله عنهم لهذين المصدرين: الكِتَاب والسنة.

فقوله ﷺ: "ما أنا عليه وأصحابي"= هو الميزان والمنهاج والطريق الذي يُوصِل إلى معرفة الكِتَاب والسنة، المعرفة الصحيحة المطابقة لمراد الله ورسوله ﷺ، ومن ثَمَّ يصح الاستِدلَال بهما على المقالة أو المذهب أو حتى الفعل.

أما إذا تُرِك الأمر هملًا لكل راتِع يخبِط فيه خبطًا= لم ينضبط ولم يُعرَف المحِق من المبطِل والصادق من المدَّعِي، فـ: "ما أنا عليه

---

[1] أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وقال الألباني: حسن.

وأصحابي" هو الذي يميز طائفة أهل السنة والجماعة عن سائر الطوائف الأخرى، فكلها تنتسب إلى المقالة المُبْتَدَعة.

أمثلة على من انتسب إلى المقالة المبتدعة:

١. القدرية والجبرية، في مقالة القدر والجبر.

٢. الخوارج والروافض، الخوارج الذين خرجوا على المسلمين بالقول وبالفعل، أو خرجوا إلى الزعيم والإمام كالكرّامية والبيانية؛ فهذه فرق تنتسب إلى شيوخها.

أما أهل السنة فقد كان انتسابهم إلى الكِتَاب والسنة والحديث ليس غير؛ فهداهم الله إلى ما أضلَّ عنه كثيرين، وذلك هو فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء؛ ولهذا نحن بصدد بيان مَنهَج أهل السنة في الاستِدلَال على مسائل الاعتِقَاد.

وفي هذا المَنهَج نركز على أمرين:

أولًا: مَصَادِر هذا المِنهَج، فما هي المِصَادِر التي يستقي منها أهل السنة مسائل الاعتِقَاد؟

ثانيًا: كَيفيَّة التعامل مع المِصَادِر.

مفهوم المَنهَج:

لكن قبل ذلك علينا أن نتعرف على: المنِهَج وأهميته في العلوم عامةً، فالمنِهَج في العادة يكون له أهداف ووسائل وله قواعد وأصول يصل من خلالها إلى ما يريد، وهذه مسألة مهمة في كل المجالات.

اهتمام المسلمين بالمَنهَج:

عِنِيَ المسلمون قديمًا وحديثًا بقضية المنِهَج؛ لأنه يضبط العلم، فمشكلة المنِهَج هي مشكلة العلم في صميمه؛ **فشرط قيام العلم وتَقَدُّمِه**: **أن تكون هناك طريقة صحيحة تُطْرَدُ تحتها شتات الوقائع والمفردات المبعثرة هنا وهناك**؛ لتفسير ما قد يوجد بينها من علاقات أو روابط تنظمها قوانين محددة.

فمِمَّ ينشأ تأخُّر العلوم؟

تأخر العلوم ناشِئٌ في العادة عن تأخر هذه المنَاهِج بمعنى: ألا تكون هناك مَنَاهِج محددة وواضحة ومتفق عليها، فيسير كل عالم في فَنِّه على غير هدى وبصيرة يخبط فيه خبط عشواء دون أن يصل إلى نتيجة مفيدة، وبالتالي تتعارض القضايا وتضطرب المسائل.

إذًا؛ تقدُّم العلم أو تأخره مُرتَهَنٌ بمسألة المَنهَج يدور معها وجودًا وعدمًا؛ لذا يمكن أن يقال:

- إن المِنهَج هو الذي يحفظ للعلم نظامه واتِّساقه.
- كما أنه يَضْبِط العقل البشري والأعمال الذهنية بقواعد ثابتة؛ بحيث تعينه على الوصول إلى الحقيقة فيما يبحثه من موضوعات.

أمثلة:

المثال الأول: في مجال اللغة العربية تَجَلَّت أهمية المِنهَج خَاصَّةً بعد تَجَاوزَ الناس عصر الاحتجاج، فاختلط العرب واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم الأعاجم؛ فدَبَّ اللحن إلى اللسانِ العربي.

واللسانُ العربي الفصيح الصحيح السليم الذي كان سليقةً هو: الوسيلة الأكثر أهمية لفهم القرآن الكريم، لكن بعد أن اختلط المسلمون بغيرهم من الأمم الأعاجم بسبب الفتوحات، صار ما صار من دخول اللحن والخطأ في اللسان العربي؛ ولهذا انتدب أمير المؤمنين عَلِيٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه أبَا الأسود الدُّؤَلي ليُقَعِّد للناس ما يحفظون به لسانهم من الفساد، وإلا كان الناس يتحدثون السليقة دون أن يعرفوا

أن الفاعل مرفوع أو أن المفعول منصوب؛ حتى دخل هذا اللحن والخطأ على الإسلام فاحتاج الناس.

وكما قال ابن خلدون: "وخَشِيَ أهل الحُلُومِ منهم -أي: أهل العقول- أن تفسد تلك المِلَكَة رأسًا ويَطُولَ العهد فيَنْغلِق القرآن والحديث عن الفهوم".

وهذا كما هو الآن في عصرنا: فكثير مِنَّا يقرأ القرآن ويقرأ الأحاديث أو يسمعها، ولكنَّ كثيرًا من ألفاظ القرآن والسنة لا نفهمها إلا أن نرجع إلى كتب التفسير وشروح الأحاديث والمعاجم اللُّغوية، فبداية هذا كان في العصور الأولى؛ ولهذا قال ابن خلدون رحمه الله: "فاستَنبَطُوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك المِلَكَة مُطَّرِدَة، هي شبه الكُلِّيَّات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويُلحِقُون الأشباه منها بالأشباه"، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع وهكذا.

وقال رحمه الله في موضع آخر: "وحين كان الكلام مَلَكَةً لأهله -أي: في السابق في عصر الاحتجاج- لم تكن هذه العلوم -النحو والصرف ونحوها- علومًا ولا قوانين، ولم يكن الفقيه حينئذ يحتاج إليها؛ لأنها جِبلَّتُه ومَلَكَتُه -أي: العربية والفصاحة-؛ فلما فَسَدَت

الملكة في لسان العرب: قَيَّدها الجهابذة المتجرِّدون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة، وصارت علومًا يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ".

فنشأت على ذلك العربية لتحافظ على صحة اللسان.

المثال الثاني: **علم التجويد**؛ فتجويد القرآن الكريم لم يكن يعرفه الصَّحَابَة ولا من بعدهم من التابعين ما ندرسه اليوم في علم التجويد، وإنما ظهر علم التجويد بعد ذلك لما دَبَّ اللحن إلى اللسان العربي؛ فاحتاج الناس إلى معرفة أحكام النون الساكنة أو أحكام الميم الساكنة والمدود والوقوف وهذه المسائل.

المثال الثالث: **علم أصول الفقه**؛ فأصول الفقه ما كان معروفًا عند الأوائل، وإنما ظهر بعد عصر الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ولهذا قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الناس كانوا قبل الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كُلِّي مرجوعٌ إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كَيفيَّة معارضاتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علم أصول الفقه".

فالصَّحَابَة ومن بعدهم كانوا يتعاملون مع علم أصول الفقه سليقةً كما كانوا يتحدثون العربية سليقة؛ حتى جاء الشافعي فأَصَّل

هذا العلم ووضع للخلق قانونًا كليًّا يُرجَع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع.

وقال ابن خلدون رحمه الله: "واحتاج الفقهاء والمحدِّثون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستنباط الأحكام من الأدلة؛ فكتبوها فَنًّا قائمًا برأسه سَمَّوه: أصول الفقه".

المثال الرابع: **علم مصطلح الحديث**؛ فلم يكن معروفًا بهذا الاصطلاح والقواعد والتقسيمات عند الأوائل، وإنما احتاج الناس إليه لما ظهر الوضع والكذب على النبي ﷺ، فاحتاج الناس إلى معرفة أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وأحواله، وضَبْطِها وتحرير ألفاظها، ومعرفة أحوال الرواة وطبقاتهم وأصناف المرويَّات، وغير ذلك مما يتصل بهذا العلم.

مثل:

التركيز على معرفة الحديث سندًا ومَتْنًا من حيث القبول

بمعنى:

- أَيُّ حديثٍ يُقبَل؟ ما شروطه؟ وما ضوابطه؟
- وأَيُّ حديث يُرَد؟

وأنواع الحديث من صحيح وضعيف وأنواع الضعف والأحاديث الموضوعة إلى غير ذلك.

المثال الخامس: في **تفسير القرآن الكريم** قعَّد العلماء مَنَاهِج لتفسير القرآن الكريم على ما ذكر كثير من العلماء في مقدمات تفسيرهم؛ كتفسير ابن كثير وغيره، وجعلوا أفضل تفسير هو:

- تفسير القرآن بالقرآن.
- ثم تفسير القرآن بالحديث.
- ثم تفسير القرآن بأقوال الصَّحَابَة ثم التابعين وهكذا.

المثال السادس: في **العلوم الطبيعية** التي تقوم على المنِهَج الاستقرائي؛ جعلوا له مَنهَجا على النحو التالي:

أولًا: يبدأ بمرحلة البحث التي تعتمد على الملاحظة والتجربة.

ثانيًا: مرحلة الفرض، وفيها يفترض الباحث وجودَ علاقة بين الظواهر ثم يجري عليها تجاربه.

ثالثًا: مرحلة البرهان، وفيها يتحقق الباحث من صدق ما افترض سابقًا؛ بحيث يتأكد من أن العلاقة التي لاحظها في مرحلة الفرض هي علاقة صحيحة.

❖ أهمية المَنهَج لضبط العلوم:

فيتضح هنا أهمية المِنَاهِج لضبط العلوم وتحديد أهدافها وطرائقها؛ بحيث لا تضطرب القضايا ولا تتعارض المسائل، ويساعد على تقدم العلوم وحفظها من الدَّخيل والشاذ، وصونها عن الضياع والاختلاف إلى آخر ذلك.

ومن هنا نتَبَيَّن **أهمية مَنهَج الاستِدلَال في مسائل الاعتِقَاد؛** وبما أن المراد والمقصود بهذه الدروس هو: بيان مَنهَج أهل السنة في تقرير مسائل الاعتِقَاد فحَرِيٌّ بنا أن نتعرف على خصائص هذا المِنهَج.

خصائص مَنهَج أهل السنة في تقرير مسائل الاعتِقَاد:

وهي كثيرة لكن من أهمها:

أولًا: وِحدَة المصدر عند أهل السنة؛ فمصدرهم الذي يتلَقَّون عنه أمور دينهم هو: مشكاة النبوة التي هي: الكِتَاب والسنة، لا العقل ولا الذوق ولا الكشف، بل هذه الأمور هي: وسائل معرفة، لكنها لا يمكن أن تتعارض مع الكِتَاب والسنة، بل إذا كانت هي وسائل صحيحة ستأتي معضِّدَة لحجة الكِتَاب والسنة.

فلا يمكن أن نعارض الكِتَاب والسنة بما يسمى:

- كشفٌ.
- أو ذوق.
- أو وجدٌ.
- أو تجاربَ علمية.
- أو قول الإمام المعصوم؛ كما هو عند الشيعة الرافضة.

فهذه واحدة من أهم خصائص أهل السنة والجماعة.

الدليل على ذلك: رواية عن الإمام أحمد ﷺ عن عبد الله بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: جاء عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة -أي: يهودي- فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ -أي: تُبيِّن لي رأيك فيها- فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله رضي الله عنه: فقلتُ له -أي: لعمر رضي الله عنه-: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر رضي الله عنه: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا، قال: فسُرِّيَ عن النبي ﷺ ثم قال: **"والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم**

حظِّي من الأمم وأنا حظُّكم من النبيين"(١). وفي رواية: "أَمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟ -متهوِّك أي: متحيِّر، بمعنى: تريد أن تلتمس الهدى والحق والصواب في الكتب المحرفة كتب أهل الكِتَاب؟- والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والذي نفسي بيده لو كان موسى -كليم الله- حيًّا ما وسعه إلا أن يتَّبِعني"(٢) أي: موسى نفسه عليه السلام لو كان موجودًا ما وَسِعَه إلا اتِّباع النبي ﷺ.

فالقرآن أبطل الكتب السَّوَالِف، بل كما يقال: حتى لو وُجِدَت النسخة الصحيحة من التوراة أو الإنجيل لما جاز العمل بها؛ لأن مضامين هذه الكتب نَسَخَه الكِتَاب المهيمن: القرآن الكريم.

ثانيًا: أن مَنهَج أهل السنة والجماعة مَنهَجٌ توقيفيٌّ يقوم على التسليم المطلق لنصوص الكِتَاب والسنة، فلا يردون منها شيئا ولا يعارضونها بشيء:

- لا بعقل.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٥٨٦٤)، وقال الألباني في الصحيحة (٦٣٢/٧): "حديث حسن".

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥١٥٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٠)، وقال الألباني في إرواء الغليل (٣٤/٦): "الحديث قوي وله شواهد كثيرة".

- أو ذوق.
- أو منامٍ.
- أو قول إمام، إلى آخره.

فهم يُسَلِّمون لنصوص الكِتَاب والسنة تسليمًا مطلقًا.

الدليل: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ثالثًا: أن أهل السنة يتجنبون الجدل والخصومات في الدين، والمقصود: الجدل من أجل الجدل؛ لأن هذا:

- يمزِّق الأمة ويمزِّق وحدتها.
- ويعرضها إلى الفتن وأن يتَّهم بعضُها بعضًا ويكفر بعضُها بعضًا.
- ويترتَّب على ذلك أن يقاتل بعضُها بعضًا.

فهم يتجنبون ذلك ويسُدون أبوابه.

وقصة صَبِيغُ بن عِسْل[١] مع عمر رضي الله عنه مشهورة ومعروفة؛ وهو ذلك الرجل الذي جاء ودخل المدينة ويتحدَّث ويسأل عن متشابه القرآن الكريم وجعل الناس في اضطراب، فجيء به إلى عمر

---

[١] أخرجه الدارمي في سننه (١٤٦) وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/٤١١).

ﷺ وقد أَعَدَّ له عراجين النخل، فجعل يضربه حتى سَالَ دَمُه فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي.

وقال الإمام مالك: "الكلام في الدين -الجدل والخصومات في الدين- أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي الجهم ابن صفوان، والقدر وكل ما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل - الكلام الذي لا يبعث على العمل من العبادة أو التأمل أو التفكر فهذا كله عبث لا ينبغي الوقوف عنده-.

رابعًا: أن السلف ﷺ اتفقوا في مسائل العقيدة؛ لأن مسائل العقيدة كلها تقوم على الخبر عن الله وعن رسوله ﷺ ومن ذلك:

- ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه وعن ذاته وعن صفاته وأسمائه وأفعاله.
- وما أخبر به عن ملائكته.
- وعن اليوم الآخر.
- وعن الجنة والنار.
- وما أخبر به عن الأمم السابقة والأنبياء.
- وما أخبر به عن الكتب السابقة.

فينبغي لهذا أن يُقَابَل بالتصديق والتسليم.

وهذا يجعل أهل السنة يتَّفقون في مسائل العقيدة؛ فإما أن تصدق بما أخبر الله به أو أن تُكذِّب.

خامسًا وأخيرًا: أن مَنهَجَ أهل السنة والجماعة مَنهَجٌ وسط؛ فحينما نأتي إلى مسائل العقيدة نجد أهل السنة دائما يتوسَّطون بين الفِرَق التي تُغالي والتي تُقَصِّر، وهذه الوسطية واضحة جدًّا في كل المقالات التي اختلف فيها أهل السنة.

مثال: في **باب الأسماء والصفات** أهل السنة وسط بين الذين عطلوها وبين الذين شبهوها، فهم وسط بين المعطلة والمشبهة.

مثال ثانٍ: في **باب القدر** هم وسط بين المكذبين لقدرة الله وشمول علمه ومشيئته، وبين الجبرية الذين يُلغُون قدرة العبد واختيار العبد، ويعتبرون العبد ما هو إلا كالريشة في مهب الريح.

مثال ثالث: في **باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد،** أهل السنة وسط بين الوعيدية الذين يكفرون المسلمين بارتكاب الكبيرة، وبين المرجئة القائلين بأن إيمان الفاسق وإيمان الأنبياء والصالحين سواء بسواء؛ حتى قال بعضهم: إيماني كإيمان جبريل، وميكائيل وكإيمان أبي وعمر!

مثال رابع: في **مسائل الصَّحَابَة** ﷺ، فأهل السنة وسط بين الذين غلوا في بعض صحابة رسول الله ﷺ كالشيعة وبعض ولاة المتصوفة، وبين الذي كَفَّروا الصَّحَابَة ﷺ من الشيعة وغلوا في بعض الصَّحَابَة ﷺ كعلي ﷺ وآل البيت وكَفَّروا سائر الصَّحَابَة ﷺ، أو **الخوارج** الذين كَفَّروا سائر الصَّحَابَة ﷺ، فأهل السنة يعتبرون الصَّحَابَة ﷺ أفضل الأمة بعد النبي ﷺ، وهم مع ذلك في الفضل متفاوتون:

- فأعلاهم في الفضل الخلفاء الأربعة.
- ثم باقي العشرة المبشرين بالجنة.

ومع ذلك لا يعتقدون في الجميع لا عصمةً ولا ألوهيةً ولا تقديسًا كما يفعل الشيعة.

الدَّرسُ الثَّانِي

مَصَادِر الاستِدلَال العَقدِيّ

المصدر الأول: القرآن الكريم (١)

❖ **المقصود بمَنهَج مَصَادِر الاستِدلَال العَقدِيّ:**

هي: المِصَادِر التي يستَقُون منها مسائل العقيدة، ويحتجون بها على مسائل العقيدة، ويحتجون بها على المخالفين في باب العقيدة.

وهذه المَصَادِر على قسمين:

١- **مَصَادِر أساسية**، ويمكن أن تسمى بالمِصَادِر السَّمعيَّة أو النَّقلية التي هي:

✓القرآن.

✓السنة.

✓الإجمَاع.

وهذا موجود حتى في أبواب الفقه وأبواب الأحكام.

٢- **مَصَادِر ثانوية:** معضِّدة ومؤيِّدة للمَصَادِر الأساسية وهي:

✓العقل الصحيح.

✓الفطرة السليمة.

والمقصود من ذلك هو: تحرير صحة هذه المِصَادِر وأنها صادقة في قضاياها، وواجبٌ على كلّ من يتكلم في مسائل الاعتِقَاد الإِسلَامِيّ ألَّا يتجاوزها وألَّا يَحيد عنها ولا يلتفت إلى غيرها.

فهذه المَصَادِر الطبيعية الموضوعية، فكلّ من أراد أن يعرف الاعتِقَاد الصحيح فهذه هي مَصَادِره، وهذه هي موارده وهذه هي ينابيعه لا يوجد غيرها، ولا تُؤتَى البيوت إلا من أَبوَابِها.

أولًا: المَصَادِر الأساسيّة:

❖ المصدر الأول: القرآن الكريم:

أول هذه المِصَادِر هو: القرآن الكريم، وهذا شيء طبيعي؛ أن يكون القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للمعتقد الإِسلَامِيّ.

وسنركز على قضايا معينة منها:

أولًا: إثبات صحة نسبة هذا المصدر إلى قائله، وأن الله ﷻ تكلم به ليس أحد غيره.

ثانيًا: أن هذا القرآن ظلّ محفوظًا إلى يوم الناس هذا وسيظلّ؛ لحفظ الله له، وأنه سَلِم تمامًا من التحريف الذي تعرَّضت له الكتب الدِّينيَّة السابقة.

ثالثًا وأخيرًا: أن نتعرف على المِنهَج في تفسير النَّصّ القُرآنيّ، وما هو المِنهَج المنطقي في تفسير هذا القرآن الكريم.

أبرز مسائل المصدر الأول:

المسألة الأولى: إثبات صحة نسبة القرآن الكريم إلى الله ﷻ:

ونعرف أن القرآن كلام الله المعجِز الذي أنزله على النبي ﷺ وَحْيًا، وسمعه النبي ﷺ من جبريل عليه السلام أمين الوحي.

الأدلة على ذلك:

- قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].
- وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].
- وقال النبي ﷺ: "**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات** - هي المعجزات- **ما مثله آمن عليه البشر**"[1]، فكل نبي أعطاه

[1] متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

الله ﷻ معجزةً تُؤيِّده حتى يُؤمن به من جاءه الخطاب، فمن الطبيعي أنه إذا جاء أحد وقال للناس: أنا رسول الله إليكم، فسيسألونه السؤال المشروع: **ما دليلك؟**

فالدليل الذي جاء به النبي ﷺ هو هذه الآية المعجزة، فكل نبيٍّ من الأنبياء زوَّده الله ﷻ بآية أي: بمعجزة، على أساسها يؤمن البشر بهذا النبي.

قال ﷺ: **"وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة"**، وهذا شيء طبيعي؛ لأن القرآن كلام، والكلام يمكن أن يُحفَظ بعكس المعجزات السابقة كعصا موسى عليه السلام وأفعال عيسى عليه السلام فهذه تنتهي بموت أصحابها، لكن مات النبي ﷺ ولم تَمُتْ مُعجِزَتُه بل ظلَّت وستظلَّ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: **"فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"**[1].

فيبقى مصدر القرآن الكريم هو الله ﷻ، فهو الذي تكلَّم به وأوحَاه إلى النبي ﷺ.

فكلُّ من يؤمن بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا ونبيًّا ينبغي أن يعترف بأن مصدر القرآن هو الله.

---

[1] سبق تخريجه.

وإلا من لا يفعل ينتقل إلى دائرة غير دائرة الإيمان هي: الكفر؛ وهي الرفض برسالة الإسلام.

والقرآن موجود لا أحد يُشكِّك في وجوده، **والسؤال: من أين أتى هذا القرآن؟**

- **المؤمن يقول**: من عند الله.
- غير المؤمن من الناس ومن يشكِّك في نسبة هذا القرآن إلى الله، **لا يشكك في وجوده لكن يشكك في نسبة وجوده**:
  - إلى من ينسب؟
  - ومن قائله؟
  - ومن الذي تحدث به؟

فله واحدٌ من أمور: إما أن يضيف القرآن إلى النبي ﷺ، وقد فعلها كثير من الناس، ويسمُّونه القرآن المحمدي فينسبونه إلى النبي ﷺ.

وأول من فعل ذلك: مُشركُو قريش فمثلا:

١. نسبوه إليه.
٢. أو إلى بشر آخر يعلِّمه للنبي ﷺ.
٣. أو إلى جن يُدَرِّسه إياه.

وهذا كله قاله أهل مكة ومن كفر بالنبي ﷺ.

أما الأول وهو: كون القرآن من عند محمد ﷺ، ويُعلِّلون ذلك بفرط الذكاء ونفاذ بَصيرته وشفافيَّة روحه مما ما يجعله يُنشِئُ – بزعمهم– مثل هذا الكلام البديع الرصين.

وهذه الدعوة ترُدُّها أدلة كثيرة، وحتى الذين ادَّعوها في زمن النبي ﷺ لم يكونوا جادِّين، لكن هي طريقة من طرق التَمَحُّل في الكفر، وهذه من الأدلة على أن هذا القرآن العربي قد أعجز الفُصحَاء والبُلغاء.

أدلة إعجاز القرآن البلغاء والفصحاء:

أولًا: ليس من الذكاء أن يأتي النبي ﷺ للناس بكلام أعجزتهم محاكاته، ثم يقول لهم: هذا الكِتَاب ليس من عندي، أي: إذا كان هو يريد أن يتسيَّد على الناس وأن يتأمَّر عليهم وأن يدَّعي ما ليس له، فلكان من الحكمة أن يقول: هذا كتابي ومع ذلك تعجزون عن الإتيان بمثله، لا بل النبي ﷺ قال لهم: ليس من عندي وإنما من عند غيري، فلم ينسبه إلى نفسه ليزداد رِفعةَ شأن، وهذا أول دليل يدل على صدق النبي ﷺ فلم يَنسبِ القرآن إلى نفسه.

ثانيًا: أن الإنسان مهما بلغ ذكاؤُه وصفت سريرتُه لا يمكن أن يأتي بذكر أحوال الأمم الغابِرة، ومسائل العقائد والشرائع والأحكام، وما في الجنة وما في النار من النعيم ومن العذاب، ويذكر بعض ما سيقع في قابل الأيَّام والدُّهور، كل ذلك على نحوٍ من التَّفصيل والتَّدقيق، مع تمام السَّبك وقوَّة الأسلوب، ومن غير تضادٍّ ولا اختلاف ولا تضارب.

مثال: في واقعنا المعاصر لا يمكن لأحدٍ أن يأتي بكتاب ويقول هذا الكِتَاب صحيح وسليم ١٠٠٪ ولا يأتيه نقص ولا عيب، ولا يمكن لأحد أن ينتقده في كلمة أو حرف أو معلومة، فلا يمكن لأحدٍ أن يدَّعيَ ذلك.

قال الإمام الباقلاني ﵀: "ما تضمَّنه القرآن من قصصٍ وأخبار الماضين التي لا يعرفها إلا من أَكثَرَ مُلَاقَاة الأمم السابقة ودراساتِ الكُتب مع العلم بأن النبي ﷺ لم يكن يتلُو كتابًا ولا يُخالط أهل السِّيَر"، فمعروفٌ أن النبي ﷺ في مكة إلى الطائف إلى المدينة فهذه منطقته، فحتى الرِّحلة التي أراد أن يذهب فيها إلى بيت المقدس رُدَّ من الطريق.

ثالثًا: مسألة التحدِّي، وأن القرآن تحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ أو بعشر سور؛ أو بالقرآن كله= فلم يقدروا على ذلك.

ولم يتجرَّأ أحد على قبول هذا التحدِّي، وهذا تحدٍّ فيه مخاطرة؛ فأن يأتي أحدٌ ويتحدَّى الناس على أن يأتوا بمثل هذا الكلام فيه مخاطرة.

والواقع أنهم لم يستطيعوا وهم أهل الفصاحة والبلاغة وأهل الشعر والبيان الذي عَقدُوا له أسواقًا يَتبَارَون فيها، ومع ذلك عجزوا عن محاكاة القرآن أو مواجهة القرآن أو أن يَكتشفُوا نقصًا في القرآن الكريم.

رابعًا: التناسب فيما تضمنه القرآن الكريم من أخبارٍ وعقائد وأحكام، من غير اختلاف ولا تعارض ولا تضاد، الأمر الذي لا يُنتَظر من بشرٍ أن يَسلَم كلامه من الاختلاف.

الدليل: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فالمفهوم: ما دام أنه من عند الله فلا اختلاف فيه.

خامسًا: الإشارات العلميَّة والكونيَّة في القرآن الكريم، وهذه **هي البوَّابة التي دخل منها كثير من الغربيين والأوروبيين للإسلام؛**

فالإسلام لم ينتشر في أوروبا وفي الغرب في عصورنا هذه المتأخرة إلا عن طريق هذه الإشارات، وهي كثيرة جدًّا، سواء فيما يتعلق بإشارات كونيَّة أو أخلاقيَّة أو تشريعيَّة.

مثال: **نجد أن النصرانية تنتشر في أيام الأزَمَات** وفي البلاد التي تكون فيها مشاكل وحروب وصراعات، فتبدأ تَتسرَّب إليهم النصرانية عن طريق الدِّراسات والمساعدات.

لكن الإسلام على العكس كُلَّما هَجَم عليه الأعداء عسكريًّا أو سياسيًّا أو اقتصاديًّا= كُلَّما انتشر وكُلَّما اشتدَّ عُودُه، ونرى ذلك بعد الأحداث العِظَام، **وآخرها أحداث غزة التي نُعايشها هذه الأيام**، ينتشر الإسلام في بلاد الغرب، مع أن المسلمين يُقتَّلون ويُحاصَرون ويُجوَّعون وتُنتَهك كرامتُهم، ومع ذلك الإسلام يشتدُّ وينتشر ويُقبِل عليه كثير من العقلاء.

الأمر الثاني: أما أن يكون النبي ﷺ تعلَّم القرآن من غيره؛ فهذا الغير إما أن يكون إنسيًّا أو جنيًّا، وإما أن يكون من بني قومه أو من أهل الكِتَاب، **والرد على هذه الاحتمالات كما يلي:**

- الاحتمال الأول: **أما كونه ﷺ تَعلَّم القرآن من بعض قومه**، فهذا فاسد من وجهين:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ نَشَأ أُمِّيًّا بين ناس أُمِّيين لا يعرفون غير علم البيان والفصاحة وما يتصل بهما، وكانوا منعزلين بشركهم عن هل الكِتَاب.

الدليل: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، ففي الآية إشارة واضحة إلى أن هذا النوع من العلم ما كان عند العرب وليس لهم به دراية.

الوجه الثاني: لم يَدَّعِ واحد من العرب -مع شدة تكذيبهم وحرصهم على معاداة النبي ﷺ وتكذيبه- نِسبةَ هذا القرآن إلى نفسه، فما قال واحد منهم: هذا القرآن أنا الذي قلته، ومحمدٌ سَرَقَه مني.

ثم إن الله تعالى قد تَحَدَّى به البلغاء والفصحاء على أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يتعرَّض واحدٌ منهم لذلك اعترافًا بالحق ورِبْأً بالنفس عن تعريضها للافتضاح، وهم أهل القدرة في فنون الكلام؛ نظمًا ونثرًا وترغيبًا وشعرًا.

- **الاحتمال الثاني: أما أن يكون المعلِّم من أهل الكِتَاب**، فهذا يردُّه كثير من الأمور منها:

أولًا: أنه لم يَذكر واحدٌ من المِصَادِر التَّاريخيَّة جلوسَ النبي ﷺ بين يدي أحبار اليهود أو رُهبان النصارى؛ بُغيةَ التعلُّم والمدَارَسة.

ثانيًا: لا اليهود ولا النصارى ادَّعوا أن هذا القرآن هو كتابهم الذي علَّموه للنبي ﷺ، أما ما يُذكر بمقابلة النبي ﷺ لبعض أهل الكِتَاب فكما يأتي:

الأول: ما يُذكر من مقابلة النبي ﷺ لبَحِيرا الراهب في سفره، وهو صغير مع عمِّه أبي طالب إلى بيت المقدس أو إلى بلاد الشام؛ **فيرُدُّ تعلّمه منه أنها:**

- كانت فترة قبل النبوة وكانت جلسة وَجِيزةً لا يُعقَل أن يَتلقَّى فيها كل هذا العلم.
- أنها كانت بحضور أبي طالب وغيره من قريش، ولو وجدوا في تلك المقابلة ما يُبطِل دعوة النبي ﷺ النبوة لأَفشَوْه إلى قريش.
- أن بَحِيرا لما لَاحَت له تبَاشِير النبوة هَمَسَ بها إلى أبي طالب، حاثًّا على المحافظة على ابن أخيه هذا من اليهود.

الثاني: ما يُذكر من مقابلة النبي ﷺ لورقة بن نوفل، وهو ابن عمّ زوجِهِ خديجةَ رضي الله عنها، وذلك بُعَيد النبوّة مباشرةً فيرُدَّ تعلمه منه أنها:

- **كانت لأجل الاطمئنان عليه ﷺ**؛ فورَقَةُ كان شيخًا كبيرًا قد عَمِي، ولم يلبث أن تُوفِّي قبل فترة الوحي؛ مما يُحيل دعوى تعلم النبي ﷺ منه شيئًا.
- بل قال له ورقة: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى أو كان يأتي عيسى، وليتني كنت جذعًا إذ يُخرِجك قومك... إلى آخر ما قال، **فهو تمنَّى أن يكون حيًّا ليَقِف مع النبي ﷺ ويُؤيّده في هذه المهمَّة.**

ثالثًا: أن الله تعالى رد على الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؛ وذلك حين زعم المشركون في مكة أن النبي ﷺ كان يجلس إلى بعض غِلمَانِ النصارى يَتعلَّم منهم، فرَدَّ الله عليهم بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]

أي: لسان اليهود والنصارى أعجميٌّ والقرآن لسان عربيٌّ مبين، وفرقٌ بين اللسانين.

رابعًا: أن القرآن نفسه شنَّع بأهل الكِتَاب ودَحَض شبهاتهم وأغاليطهم وكفَّرهم؛ فكيف يكون مصدرَ القرآن الكريم هو اليهود أو النصارى؟

فقد ذُكِر في القرآن ما كَفَروا به من ألوهية عُزَير وتسميته بأنه ابن الله.

الدليل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة: ٣٠].

الاحتمال الثالث: أما أن يكون المعلِّم جنيًّا؛ فيُحِيلُه أمور منها:

- حال النبي ﷺ بين قومه ولُبثه فيهم عُمْرًا طويلًا.
- وهو أحسنهم أخلاقًا وأعظمهم عقلًا وأثبتهم نفسًا وأفسحهم فهمًا.

كل ذلك وغيره يُحِيل أن يكون ﷺ ملاذًا للشياطين ومحلًّا للوساوس، بل الشياطين أعجزُ من أن تأتي بمثل هذا الكلام.

- **أما إضافة قريش القرآن إلى السِّحر والجنِّ والكهانة؛** فهذا حينما أعيَتهُم وعجزوا عن الإتيان بمثله؛ فأضافوا القرآن إلى السحر والجن كما في قصة الوليد وغيره.

الدَّرسُ الثَّالِث

المصدر الأول: القرآن الكريم (٢)

المسألة الثانية: حفظ القرآن الكريم:

أولًا: حفظ القرآن الكريم في عهد النبوَّة:

أنزل اللهُ ﷻ كتابَه ليكون الكِتَاب المُهَيمِن والرّسالة الخاتمة؛ لأنه لو ضاع هذا الكِتَاب ما عادت هناك رسالة ولا نبوة ولا حجة على الناس؛ فهذا القرآن هو مادَّةُ الرسالة الخاتمة، تَولَّى الله ﷻ حفظه وبَقَاءَه وبُعْدَه عن التّحريف والتّغيير.

الدليل: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩].

وأولُ حِفظٍ حُفِظَ به القرآن الكريم في عهد النبوة نفسها، وهو له وجوهٌ عدة ومن ذلك:

الوجه الأول: الطريقة التي كان ينزل بها الوحي، فكان ينزل على هيئةٍ وطريقةٍ هي أَدعَى إلى حفظه وضبطه.

الدليل: أخرج البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن الحارث بن هشام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: **"أحيانًا يأتيني مثل صَلصَلة الجَرَس وهو أشدّه عليَّ فيُفصَمُ عنّي وقد وعَيتُ عنه ما قال**، -وعيت أي: فهمت وحفظت عنه وعقلت- **وأحيانًا يتمثَّل لِيَ الملك رجلًا فيكلّمني فأعِي ما يقول**"[1]، ما يقوله المَلَك.

فهاتان طريقتان ذُكِرتا في الحديث هما:

١- **طريقة صلصة الجرس**؛ وهي قوَّة عظيمة جدًّا والغرض منها: شدُّ انتباه النبي ﷺ فيتفرَّغ بذهنه وقلبه وعقله وكيانِه كلِّه لتَلقِّي القرآن الكريم عنه، فيَنفَصِم عنه وقد وَعَى ما قال.

٢- **أن يتمثَّل له الملك رجلًا** فيكلِّمه فيَعِي ما يقول، وهاتان طريقتان تدعو إلى حفظ القرآن الكريم.

وهناك طُرُقٌ أخرى جاء بها الوحي للنبي ﷺ منها:

٣- **المدارسة**؛ فإن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يأتي النبي ﷺ في كل رمضان يُدارِسُه القرآن ويُراجِعه، حتى آخر رمضان الذي توفي بعده

---

[1] متفق عليه، أخرجه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

النبي ﷺ جاء جبريل مرتين ويسمونها: العرضة الأخيرة؛ فعرض النبي ﷺ القرآن على جبريل يُرَاجِعُه.

الوجه الثاني: كتابة الوحي؛ فقد كان النبي ﷺ إذا جاءه الوحي دعا الكتَبَة وألقى عليهم ما سَمِعَه من المَلَك، ثم طلب منهم أن يَقرؤُوا ما كتبُوه، فإذا وجد خطأً أو سقطًا أقامه؛ فهذه طريقة من طرق حفظ القرآن الكريم.

الوجه الثالث: قَصْرُ الكِتَابة على القرآن الكريم؛ فقد كان النبي ﷺ في بداية الأمر يَنهَى أن يُكتَب شيءٌ سِوَى القرآن؛ حتى لا يختلِطَ القرآن بغيره.

الدليل: كان ﷺ يقول: **"لا تكتبوا عنِّي، ومن كتب عني غير القرآن فليَمْحُه وحدثوا عني ولا حرج..."**[١] الحديث، ثم بعد أن استقرّ القرآن ووَضَح، وعُرِفت طريقة القرآن وأسلوب القرآن أُذِن بالكِتَابة عن النبي ﷺ بعد أن زال سبب المنع.

الوجه الرابع: الحثُّ على تَعلُّم القرآن وتعليمه؛ فقد كان النبي ﷺ يحثُّ أصحابه على تَعلُّم القرآن وتعليمه وحفظه وتحفيظه،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٤).

وكان ﷺ يُقدِّم أكثرهم أخذًا للقران في إمامة الصلوات وقيادة السَّرايا، وحتى في الدفن كان يُقدِّم الأكثر حفظًا للقرآن الكريم.

الدليل: قال ﷺ: **"خَيرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه"**[1]، إلى آخر النصوص، فهذا جعل الصَّحَابَة يتسابقون على حفظ القرآن الكريم.

الوجه الخامس: قُوَّة الحافظةِ عند العرب الأوائل، فالعرب كانوا أهل حافظةٍ لا تكاد تُخطِئ وذاكرةٍ لا يكاد يَعزُب عنها شيء، وخاصَّة أن القرآن جَاءَ في براعةٍ من الأسلوب ورفعةٍ من البيان ما يَجعله أَحرَى لحفظه والاهتمام به حتى كَثُر آخذوه صدرًا وسطرًا.

فهذه الأمور كلها ساعدت على حفظ القرآن الكريم في عهد النبوة.

ثانيًا: حفظ القرآن الكريم في عهد الصَّحَابَة:

أما عهد الصَّحَابَة فتميَّز بحادثتين كبيرتَين عظيمتَين هما:

الحادثة الأول: حادثة جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق، وهي معروفة؛ حيث جُمِع القرآن الكريم في مكان واحد.

---

[1] أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

وسبب هذا الجمع: كثرة القتل في القرَّاء حفظة القرآن الكريم؛ وذلك يوم اليمامة؛ حيث استحَرَّ القتل بقرَّاء القرآن وخَشِي الصَّحَابَة أن يذهب القرآن بذهابِ حُفَّاظِه؛ فأجمعوا على حفظ القرآن الكريم في مكان واحد، وكانت هذه حادثة عظيمة، وهي من مناقب الخليفة الأول والصدِّيق الأكبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

الحادثة الثانية: حادثة جمع القرآن الكريم في عهد الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه؛ وذلك لما بدأ النزاع يظهر بين بعض المسلمين خاصةً في الأطراف.

سبب الجمع: الاختلاف في الأَحرُف التي نزل بها القرآن الكريم؛ فأجمع الصَّحَابَة على جمع القرآن الكريم على حرفٍ واحد وإحراقِ بقية الأَحرُف؛ حتى لا تَنتشِر الفُرْقَة في الدين بين المسلمين؛ فكان له دورٌ عظيم.

المسألة الثالثة: سلامةُ القرآن الكريم من التَّحرِيف:

سلِم القرآن الكريم من التَّحريف سلامةً لم تتهيَّأ للكتب السابقة؛ فهذا القرآن الذي بين أيدينا الآن هو نفسه القرآن الذي كان بين يدي الصَّحَابَة، وهو نفسه القرآن الذي نزل به جبريل عليه السلام

على النبي ﷺ، وهو الذي تَلَاه على الصَّحَابَة ﷺ، وسمِعَه منه الصَّحَابَة ﷺ وكتبوه؛ لم يَتغيَّر منه حرف.

فالقرآن الذي ما بين الدفَّتين مما في أيدي الناس اليوم هو هو نفسه الذي نَزَل على النبي ﷺ لا زيادة فيه ولا نقص، وهذا لم يتوفَّر لأيِّ كتابٍ من الكتب قديمًا وحديثًا، وقد ورد إلينا هذا الكِتَاب -القرآن الكريم- متواترًا بنقل الكافَّة من الناس التي لا تقع تحت حصرٍ ولا عَدٍّ عن مثلها حفظًا وكتابةً، ولم يختلف في عصر من العصور عمَّا في غيره، بل هو كتابٌ واحدٌ بلفظٍ واحد يجتمع أهل الأرض جميعًا على قراءته دون اختلاف بينهم لا في سورةٍ وآية، أو كلمة أو حركة.

وخير شاهد على ذلك: المسابقات العالميَّة التي تُعقَد في كثير من دول العالم للقرآن الكريم، ويَنضمُّ إليها أجناسٌ من النَّاس من أنحاءَ شتَّى من العالم؛ فمن الصين ومن الهند ومن إيران ومن البلاد العربية والإفريقية والأوروبية والأمريكية، وكلُّهم يقرأُ نفسَ القرآن بنفسِ الترتيب ونفسِ الصور، لا يختلف أحد عن أحد؛ فهذا خيرُ دليلٍ على بقاء القرآن وحفظه.

الأدلة على حفظ القرآن الكريم:

- قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فتولَّى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حفظ هذا الكِتَاب، وبه يُحفَظ الإسلام ويُحفَظ الدِّين وتقوم به الحجَّة إلى يوم الدين.
- وقال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥].

ومن وسائل هذا الحفظ: **النَّقل المتواتر**؛ ومعروفٌ أن أيَّ موضوعٍ أو معلومةٍ أو خبر: إذا نُقِل نقلًا متواترًا فلا يُنظَر حتى في أحوال الرُّوَاة من حيث العدالة أو الضبط ونحو ذلك؛ لأن النَّقل المتواتر يَطغَى على جميع العيوب.

المسألة الرابعة والأخيرة: المَنهَج في تفسير النَّصّ القُرآنيّ:

وقد اتفق العلماء على مَنهَجِ تفسير القرآن الكريم وهو:

المَنهَج الأول: طلبُ معرفةِ معنى النَّصّ من القرآن نفسه:

والمقصود: تفسير القرآن بالقرآن، وهذا خير تفسيرٍ وأصدق تفسيرٍ، وهي من أفضل طُرُق التفسير؛ أن يعرف مراد المتكلم من

كلامه نفسه حسب قواعد لغته التي يتكلم بها وحسب طريقته وعادته في الكلام فيفسِّر كلامه بعضَه ببعض.

ويسّر ذلك عدة أمور:

١– أن القرآن عربيٌّ.

ودلَّ على ذلك: قول الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[الزخرف:٣].

٢– وأن القرآن مُنَزَّهٌ عن العِوَج والعُجمَة.

والأدلة على ذلك:

✓ قول الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾[الزمر:٢٨].

✓ وقول الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾[النحل:١٠٣].

٣– أن الذي أُنزِل عليه القرآن كان عربيًّا فَصيحًا وهو محمد ﷺ.

٤– وأن الذين خاطبهم بالقرآن كانوا عربًا فُصَحَاء.

فجرى الخطاب بالقرآن على مُعتادِه كما في لسانهم لفظًا ومعنًى؛ ولهذا قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يَعلَم من إيضاح جُمَل علم الكِتَاب أَحَدٌ جَهِل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجمَاع معانيه وتفرّقها، ومن عَلِمَه وأَتقَنَه –أي: من علم هذا اللسان بأساليبه

ومعانيه- انتَفَت عنه الشُّبَه التي دخلت على من جهل لسانها"؛ فلهذا الذي يجهل لسان العرب لا يستطيع أن يفهم القرآن أو أن يُفسِّر القرآن الكريم؛ ولهذا قال الإمام الشاطبي: "لا يجوز لأحد أن يتكلم في الشريعة حتى يكون عربيًّا أو كالعربي في كونِه عارفًا بلسان العرب".

ما المقصود هنا بالعربي؟

لا يُقصَد به عِرْقٌ ولا جِنس؛ وإنما المقصود كما يقال: العربية لسان، وكان معظم أهل العربية من الأعَاجِم كسيبويه وغيره.

وهذا هو المقصود بالعربي أي: بالغًا فيه مَبَالِغهم.

وذكر الإمام الشافعي في كتابه الرسالة:

- "فالعرب تُخاطب بالشيء عامًّا ظاهرًا تُريد به العام الظاهر،
- لكنها أيضًا تُخاطب بالشيء عامًّا ظاهرًا تريد به الخاص،
- وظاهرٌ يُعرَف في سياقه أنه لا يُراد به غير ظاهره.

كل هذا موجود عِلمُه إما في أول الكلام أو في وسطه أو في آخره.

- والعرب تتكلَّم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ.
- وتُسمِّي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة.

- وتُسمِّي الاسم الواحد المعاني الكثيرة.

وهكذا القرآن نزل بهذا الأسلوب".

أمثلة لأساليب القرآن الكريم:

- **العام الظاهر مع بقائه على عمومه**، مثل: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]، فهذا عام يُراد به العام؛ فأيُّ دابة في الأرض هي مرزوقة من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهذا عام لا خصوص فيه، ولا يُستثنَى منه شيء.
- **عام يُراد به الخصوص** مثل: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [آل عمران:١٧٣]، **فالمراد الناسُ هنا**: بعضُ الناسُ ليس كلُّ الناس، بل جاء في رواية أنه شخص واحد، فالذين قال لهم الناس: هو واحد لكن بسبب عِظَم ما قاله فكأنما كلّ النَّاس قالوه.
- **ما يُعرَف معناه في سِياقه**، مثل: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ [الأنبياء:١٢]، **فالمراد بالقرية**

هنا: أهلها ليس المنازل ولا الأسواق ولا الشوارع؛ وإنما المراد أهلها، فإن هذا عام يُراد به الخاص.

- **ومن أساليب القرآن: أنه قد يُوجِز في موضوع ما ويُفصِّل فيه في مكان آخر**؛ **مثل**: قصةِ فرعون وموسى؛ فقد أَوجزَهَا في سُوَرٍ وفصَّل فيها في سُوَرٍ أخرى، وذلك حسب الهدف من السورة.
- **ومن الأساليب: أن يَرِدَ النَّصُّ مطلقًا في موضع ثم يُذكَرُ مقيَّدًا موضع آخر**؛ إما متصلًا أو منفصلًا، **مثل**: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، فقال الصَّحَابَة رضي الله عنهم للنبي ﷺ: وأيُّنا لم يَظلِم يا رسول الله؟ فنزَّل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، فليس هو أيُّ ظلمٍ كما يَظلِم الإنسان أخاه أو نفسه، وإنما المقصود بهذا الظلم في هذه الآية: **الشرك**.
- **وقد يرد النص عامًّا في موضع ويرد مخصصًا في موضع آخر**، **مثل**: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فنفى عموم الخلَّة والشفاعة

فلا تنفع صاحبها، لكن في موضع آخر قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٦٧]

أي: خُلَّة المتقين تنفع يوم القيامة.

فالمفسِّر يحتاج أن يجمعَ الآيات في الموضوعِ الواحد وينظرَ فيها مجتمعةً؛ لأنه قد يكون بينهما إطلاق وتقييد وخصوص وعموم وهكذا.

المَنهَج الثاني: طلبُ معرفة النَّصّ القُرآنيّ من سنة النبي ﷺ:

أفضل طريقةٍ -كما سلف- لتفسير القرآن وفهمه هو:

١. **القرآن نفسُه.**

٢. فإن لم يتيسر فهم النَّصّ القُرآنيّ من القرآن نفسِه **طلبه المفسر من سنة النبي ﷺ** فهي: البيان للقرآن الكريم، ونحن نعرف أن علاقة السنة بالقرآن الكريم علاقةٌ مُؤكِّدةٌ، أو مُفسِّرةٌ، أو مُبيِّنةٌ، أو مُخصِّصة إلى آخر ما هُنالِك من العلاقات.

الأدلة على ذلك:

- قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[النساء:١٠٥].

- وقـــال سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤].
- وقـــال سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر:٧].

فيتبيّن من هذه الآيات أن علاقة النبي ﷺ بإيضاح القرآن الكريم وتفسيره علاقةٌ وثيقة، وقد قال ﷺ: **"ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"**[(١)]، أي: ينزِل بالسُّنة الوحي كما ينزل بالقرآن الكريم، وقد ذكر ذلك العلماء؛ ولهذا لا نستطيع القيام بكثير من العبادات، بل بأصول الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج إلا عن طريق السنة.

فالسنة هي التي جاءت ووضَّحت كلَّ شيء، مثل:

- ✓ الأركان والواجبات والمحظورات.
- ✓ المستحبات والمكروهات.
- ✓ والهيئات والأوقات.
- ✓ والمقادير والأنظمة.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٠٤)، وأحمد في المسند (١٦٥٤٦)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧١/٣): "صحيح".

وكل ذلك على نحوٍ من التَّفصيل لم يَرِد في القرآن الكريم؛ ولهذا قال العلماء: "حاجة القرآن من السنة أعظم من حاجة السنة إلى القرآن" فالسنة هي: البيان العمَلِيّ والتَّفصيليّ لكثير ممّا ورد في القرآن الكريم.

إذا؛ الطريقة الثانية والمَنهَج الثاني للتفسير هي: أن نلجأ إلى السنة النبوية لفهم معاني القرآن الكريم.

المَنهَج الثالث: طلب معرفة النَّصّ القُرآنيّ من أقوال الصَّحَابَة ﷺ:

ولما تعذَّر فَهْمُ النَّصّ القُرآنيّ من السنة= **طلبَهُ المفسِّرون من أقوال الصَّحَابَة ﷺ فَهُمْ أعلم الناس بذلك.**

فالصَّحَابَة لهم خصوصيَّة وذلك لعدة أمور:

- **أنهم هُم الذين شاهدوا القرائن والأحوال،** وعَايَنُوا التَّنزيل وعايَشُوا النبي ﷺ.
- **أن لهم من الفهم والعلم والعمل الصالح ما ليس لغيرهم،** لا سيَّما من علمائهم الكبار: كالخلفاء الأربعة الراشدين ﷺ، والأئمة الأعلام؛ كعبد الله بن مسعود ﷺ الذي قال: "والذي لا إله إلا هو ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلمُ حيثُ نزلت، وما من آية إلا أنا أعلمُ فيمَ نزلت، ولا أعلم أحدًا هو أعلمُ بكتاب

الله عندي تبلغُه الإبل لَرَكِبتُ إليه"، أي: لو أعرِفُ واحدًا أعلم مني في آية وكان بعيدًا لا يُؤتَى إلا بالمطايا والإبل لركبت إليه.

- **شهادة النبي ﷺ لبعض أصحابه بهذا الفضل**، كما سُمِّي ابن عباس رضي الله عنه بَحَبْرِ الأمة وتُرْجُمَان القرآن؛ وذلك ببركة دعاء النبي ﷺ له بقوله: **"اللهم عَلِّمهُ الكِتَاب"**[١].

المَنهَج الرابع: طلبُ النَّصّ القُرآنيّ من أقوال التابعين:

وإذا لم نجد في أقوال الصَّحَابَة ما يكفينا ويُعِيننا على فهم المراد، فقد رجع كثيرٌ من الأئمة إلى: أقوال التابعين الذين عاشوا مع الصَّحَابَة رضي الله عنهم وعَايَشُوهم وسمعوا منهم وجَالسُوهم واستفادوا من علمهم، لا سيَّما كبار التابعين ومنهم:

١. **مُجَاهِد بن جَبْر**؛ فقد كان آيةً في التفسير، وقد قال عن نفسه: "لقد عَرَضتُ القرآن على ابن عباس رضي الله عنه ثلاث عرضَات، أقف عند كل آية أسأله: فيمَ أُنزِلت؟ وفيمَ كَانَت؟"[٢]، فهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٤٥٠).

حريٌّ أن نأخذ التفسير منه؛ فهو عَرَض القرآن على تُرجمان القرآن ابن عباس ثلاث عرضات.

٢. **سعيد بن جُبَير**.

٣. **وعِكرِمَة مولى ابن عباس**.

٤. **وعطاء بن أبي رباح**.

٥. **والحسن البصري**.

وغيرهم كثير من التابعين الذين استفادوا علم القرآن الكريم وتفسيره من الصَّحَابَة ﷺ، ويُؤخَذُ منهم تفسير القرآن لأسباب عدة منها:

✓ أنهم أقرب عهدًا بنزول القرآن.

✓ وأعرف من غيرهم بلغته وأساليبه.

✓ وأكثرهم حفظًا للسنن والآثار.

✓ وأنهم من أهل القرون المفضلة المشهود لها بالخير الصحيح.

والدليل على أنهم من خير القرون: قول النبي ﷺ: **"خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"**[(١)]، وهذه الخَيريَّة هي خيريَّةُ علمٍ وإيمانٍ وعملٍ صالح.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٤٢٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

الخلاصة: القرآن مقدمةُ المَصَادِر في مسائل الاعتِقَاد:

فالمقصود إذا من خلال التفصيل الذي سبق: بيانُ أن القرآن الكريم يأتي في مقدمة المِصَادِر التي يَستَقِي منها أهل السنة والجماعة مسائل الاعتِقَاد، وغيرها من مسائل الأحكام.

وأن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هو الذي تَكلّم به، وأنزله على رسوله ﷺ بواسطة جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وقد تَكفَّل الله بحفظِه وصيانته عن الزيادة والنقصان، وهو الآن على ما كان عليه يوم أن نَزَل، لا زيادة ولا نقصان.

الدَّرسُ الرَّابِعُ

المصدر الثاني: السُّنة النبوية (١)

مسائل المصدر الثاني:

١- أن السُّنَّة وحيٌ من عند الله ﷻ -كما القرآن الكريم-.

٢- أنها محفوظةٌ وَجَدَت من عناية الحفظ ما وَجَدَت -كما القرآن الكريم-.

٣- أنها حجة كما القرآن الكريم حجة؛ فمنزلة السُّنَّة كمنزلة القرآن الكريم.

المسألة الأولى: أن السُّنَّة وحي من عند الله ﷻ:

السُّنَّةُ وحيٌ من عند الله ﷻ، وإن كانت وحيًا غير متلوَّة كما القرآن الكريم، لكنه وحيٌ ملفوظٌ بألفاظ النبي ﷺ ومعانيه من الله ﷻ.

فمعاني أحاديث النبي ﷺ أو معاني السُّنَّة كان ينزل بها جبريل عليه السلام كما ينزل بالقرآن الكريم، أو ينفثُ بها في روع النبي ﷺ أي: في قلبه وفؤاده.

الدليل: جاء في الحديث: **"إن الروح الأمين** -أي جبريل عليه السلام- **قد أَلقَى في رُوْعِي** -أي: أَلقَى في نفسي أو في عقلي أو في قلبي أو في فؤادي- **أنه لن تموت نفسٌ حتى تَستَوفي رزقها، فاتقوا وأجملوا في الطَّلب"**(١)؛ فهذه السُّنَّة عن طريق الإلهام، وهنا تختلف عن القرآن الكريم في طريقة الإيحاء بها.

طُرُق الوحي بالسُّنَّة:

١- قد يأتي الوحي على النبي ﷺ منامًا.

٢- وقد يأتي إلهامًا.

٣- أو قد يكون اجتهادًا من النبي ﷺ والله ﷻ يُؤيِّدُه ولا يُخطِّؤُه؛ فالرسول ﷺ قد يقول أو يفعل باجتهاد منه في حدود ما تعلَّمَه من مقاصد الشريعة وقَواعِدِه الحكيمة، وهذا الاجتهاد:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩٣٩)، وابن حِبَّان في صحيحه (٣٢٢٧)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨٨/٦): "صحيح بمجموع طرقه".

- إما أن يقرَّر عليه وبالتالي يَرجِع إلى حقيقة الوحي.
- أو لا يقرّر فيُنَبَّه إلى الصواب، ويكون الصواب هو: الوحي.

الأدلة على أن السُّنَّة وحيٌ من الله ﷻ:

والأدلة على كون السُّنَّة من الوحي كثيرة، وهي ترجع إلى الكِتَاب والسُّنَّة نفسها وإجمَاع المسلمين، وإلى النَّظَر الصَّحِيحِ أي: الاستِدلَال العقلي.

دلالة القرآن على أن السُّنَّة وحي:

الدليل الأول: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم]، فهذا عام في جميع ما ينطق به ﷺ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "اكتُب فَوالَّذي نفسي بيده، ما يَخرج منه -أي: من فِي النبي ﷺ- إلا حقّ"، وَأومَأَ ﷺ بإصبعه إلى فِيه[1].

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١١٣)، ومسلم (٢٣٧٩).

وهذه الحادثة لها مناسبة وهي: أن قريشًا قالت لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "أتكتب كلَّ شيءٍ تسمعه من النبي ﷺ؟ ورَسولُ الله ﷺ بَشَرٌ يتكلم في الغضب والرضا"، فأمسَكَ عن الكِتَابة حتى ذكر وشكى ذلك إلى الرسول ﷺ فذكر له الحديث: "اكتب فوالذي نفسي ما يخرج منه إلا حق"؛ فهذا دليل على أن السُّنَّة من الوحي.

الدليل الثاني: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾[البقرة:٢٣١].

الدليل الثالث: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[الأحزاب:٣٤].

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فسمعت من أَرضَى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ"، وهذا يُشبِه ما قال والله أعلم؛ لأن القرآن ذُكِرَ وأُتْبِعَتْه الحكمة، وهذا في كثير من المواضع في القرآن الكريم، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وذكر الله مِنَّتَه على خلقه بتعليمهم الكِتَاب والحكمة، فلم يَجُز والله أعلم أن يُقالَ الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله ﷺ".

ونقل القرطبي رحمه الله عن أهل العلم بتأويلِ تفسيرِ الحكمة هنا بالسُّنَّة، فإذا كانت الحكمة معناها السُّنَّة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَرَن بين الكِتَاب والسُّنَّة في الإنزال، فهذا يقتضي كونها من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والأدلة كثيرة.

الدلالة السنيَّة على أن السُّنَّة من الوحي:

وهذا له وجوه كثيرة ومنها:

- قوله ﷺ **"ألا إني أوتيت الكِتَاب ومثله معه"**[(١)]؛ فالمثل هذا هو: السُّنَّة.
- قوله ﷺ: **"إن الروح الأمين قد أَلقىَ في رُوْعِي"**[(٢)]، والروح الأمين هو جبريل عليه السلام، وأَلقىَ في روع النبي ﷺ أي: القلب أو الفؤاد، وفي رواية: **"إن رُوحَ القُدُس قد نَفَث في**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٠٤)، وأحمد في المسند (١٦٥٤٦)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧١/٣): "صحيح".

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩٣٩)، وابن حِبَّان في صحيحه (٣٢٢٧)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨٨/٦): "صحيح بمجموع طرقه".

رُوْعِي"(١)، وفي رواية أخرى: "هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في رُوْعِي"(٢).

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فكان مما أُلقي في رُوعِه: سنَّتُه وهي الحكمة التي ذكر الله".

دلالة الإِجمَاع على أن السُّنَّة من الوحي:

نقل الإمام الشوكاني اتفاق العلماء على أن السُّنَّة المطهرة مستقلَّة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، ونقل ذلك ابن حزم وغيرهم من الأئمة نقلوا الإِجمَاع في ذلك.

دلالة النَّظَر الصَّحِيح على أن السُّنَّة من الوحي:

أولا: أن النَّقل والعقل دلَّا على عصمة النبي ﷺ عن الخطأ في تبليغ الرسالة وفي كُلِّ ما يُضِيفه إلى الله وينسبُه إليه فهو معصوم، وهذا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٣٤)، وابن ماجه في سننه (٢١٤٤)، وأحمد في مسنده (٢٨٥٩٩)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/٧٠٠): "الحديث صحيح وله شواهد تقوِّيه".

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٣٤)، وأحمد في مسنده (١٧٣٦٦)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/٧٠٠): "صحيح".

لا يستقيم إلا إذا كان ما يقوله ﷺ من السُّنَّة= وحيٌ من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ **لأن الدليل على العصمة قام من جهة كونه ﷺ مبلِّغًا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**، لا من جهة أخرى كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، فعقلًا أن السُّنَّة هي كالقرآن، وكلُّ مَا يَنسِبُه الرسول ﷺ إلى الله ﷻ فإن هذا وحي.

ثانيًا: أن النبي ﷺ هو محل قدوة وأسوة، فلا بد أن يكون كلّ ما صَدَر عنه من أقوال أو أفعال أو تقريراتٍ هي من الوحي، إلا أن يستثني ذلك في بعض المواقف فيقول: هذا اجتهادٌ مني.

والاجتهاد على أحد حالين:

- إما أن يُقَرَّ عليه فيكون وحيًا.
- وإما أن يُهدَى فيه إلى الصواب وبالتالي يكون وحيًا.

المسألة الثانية: أن السُّنَّة محفوظةٌ؛ لأنه وحي:

فهذه السُّنَّة وَجَدَت من الحفظ ما وَجَدَهُ القرآن الكريم؛ لأنه وحي، وعلاقة السُّنَّة وثيقة بالقرآن الكريم شرحًا وبيانًا وتخصيصًا ونَسخًا على قول كثير من أهل العلم، وكما قيل: "حاجة القرآن إلى السُّنَّة أعظم من حاجة السُّنَّة إلى القرآن"؛ فهي الشَّرحُ العمليّ

والتفصيليّ للقران الكريم، فلابد إذا حُفِظ الأصل= أن يُحفظ هذا البيان والشرح والتوضيح؛ ولهذا استدل كثير من العلماء على أن السُّنَّة محفوظة كما قال ابن حزم: "فَصَحَّ بذلك أن كلامه ﷺ كله محفوظ بحفظ الله ﷻ، مضمون لنا أنه لا يَضِيع منه شيء؛ فهو منقول إلينا كلّه، فللّه ﷻ الحجة علينا أبدًا".

وهذا لا يتنافى مع وجود أحاديث ضعيفة أو موضوعة، بل هذا من الحفظ؛ كوننا نعرف أن هناك أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وإلا لاختلط الصحيح بالضعيف بالموضوع، ولقال من شاء ما قال.

وسائل حفظ السُّنَّة:

وكان لحفظ السُّنَّة وسائل متعددة ومتنوعة فمنها:

- ✓ما يرجع للنبي ﷺ وإلى طريقته في تثبيت السُّنَّة في نفوس أصحابه رضي الله عنهم.
- ✓ومنها ما يرجع إلى الصَّحَابَة رضي الله عنهم وشدة عنايتهم بحديث رسول الله ﷺ، وقد شاركهم التابعون لهم بإحسان في كثير من هذه الفضائل.
- ✓ومنها ما يرجع إلى تدوين السُّنَّة في الكتب والمصنفات.

✓ومنها ما يرجع إلى ما وضعه العلماء من القواعد والمَناهِج؛ لحفظ السُّنَّة من الدَّخِيل والموضوع.

أمثلة ذلك: ورد في مثل هذا أمثلة كثيرة ومتعددة ومنها:

أولًا: أثر النبي ﷺ في حفظ السُّنَّة:

كان للنبي ﷺ أكبر الأثَر في حفظ سنته، ولذلك شواهد ووسائل عدة من ذلك:

- **طريقته ﷺ في التَّحدُّث إلى أصحابه ﷺ؛** فكان ﷺ يُعِيد ما قاله ثلاث مرات؛ كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "كان ﷺ إذا تكلَّم كلمةً أعادها ثلاثًا حتى يُفهَم عنه"، فكان الرسول ﷺ حريصًا على إفهام أصحابه ﷺ؛ ولذلك كان يُرَدِّد ويُعِيد ما قاله.
- **ومن الوسائل: أن النبي ﷺ كان يَتحدَّث في تُؤَدَةٍ ووضوح؛** كما قالت عائشة رضي الله عنها: "لا يسرد الحديث سردًا، بل لو شاء العادّ أن يُحصِيه أحصاه"، أي: لو أن أحدًا يريد عدَّ كلمات النبي ﷺ لاستطاع ذلك؛ لأنَّ الرسول ﷺ كان يَتحدَّث في تُؤَدَةٍ ولم يكن "يسرد الحديث سردًا"، أي: سريعًا.

- **ومن الوسائل كذلك: أن النبي ﷺ كان يُرَغِّب في طلب العلم وسماع الحديث وضبطه**، ثم أدَائِه إلى غيره مضبوطًا محفوظًا من غير تغيير ولا تبديل؛ كما في الحديث المشهور عن معاوية رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: **"من يُرِد الله به خيرا يُفقِّهه في الدين"**(١).

وكذلك حديث: **"من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة"**(٢) إلى آخر الحديث.

وكذلك حديث: **"نَضَّر الله امرأً سمع منَّا شيئًا فحفظه حتى يبلِّغه غيره، فرُبَّ حاملِ فقه إلى من هو أَفقَهُ منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه"**(٣).

- **ومن الوسائل كذلك: تَوَعُّدُه ﷺ الشديد بالنار لمن كَتَمَ عِلْمًا أو كَذَب عليه متعمدًا**، وأَمْرُه الصيانة لحديث النبي ﷺ أن يتقوَّل عليه أحد من الناس بما لم يقله؛ فقد قال رسول الله

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٨)، وأبو داود في سننه (٣٦٦٠)، وابن ماجه في سننه (٢٣٠)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٦٠٥): "صحيح".

ﷺ: "من سُئِل عن علمٍ فكتَمَه ألجَمَه الله بلجامٍ من نار يوم القيامة"(١).

وقوله ﷺ: "من كذب عَلَيَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"(٢).

وكثير من العلماء يُكفِّرون من استَحَلَّ الكذب على النبي ﷺ؛ فهذا التحذير وهذا التشديد كان له أثرٌ عظيم جدًّا في تحرِّي الصَّحَابَة ﷺ ومن بعدهم من أهل العلمِ الصدقَ والدقَّة في نسبة الكلام إليه ﷺ لفظًا ومعنًى.

- **ومن ذلك ما قاله عمرو بن ميمون:** "ما أخطأني ابن مسعود ﷺ عشية خميس إلا أتيته فيه"، أي: أن ابن مسعود ﷺ كان له درس كل خميس، وكان يحرص عمرو بن ميمون على حضور هذا الدرس.

قال: "فما سمعته يقول بشيءٍ قطُّ قال رسول الله ﷺ" أي: أن ابن مسعود ﷺ إذا ذَكَر حديثًا يُنسب إلى النبي ﷺ ولم يكن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٦٥٨)، والترمذي في سننه (٢٦٤٩)، وابن ماجه في سننه (٢٦١)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٦٠٥): "صحيح".

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩١).

ضابطًا للألفاظ يتحرّى ذلك، قال: فلما كان ذات عشية قال: "قال رسول الله ﷺ"، فنكَّس ابنُ مسعود رأسَه، قال: فنظرتُ إليه فإذا هو قائم محلَّلة أزرَار قميصه قد غرِقت عيناه وانتفخَت أَودَاجُه"، وكل هذا خوفًا من أن يَنسِب إلى النبي ﷺ ما لم يقله! ثم قال ابن مسعود: "أو دون ذلك، أو فوق ذلك أو قريبًا من ذلك أو شبيهًا بذلك"، أي: اعتبروا ما سمعتموه أنه هو قول النبي ﷺ أو قريبًا منه أو شبيهًا به، فهذا كله من باب التحرِّي ألَّا يَنسِبَ إلى النبي ﷺ شيئًا لم يقله.

- **ولهذا أيضا كان أنس** ﷺ إذا فرغ عن حديث رسول الله ﷺ يقول: "أو كما قال رسول الله ﷺ".

ثانيًا: أثر الصَّحَابَة ﷺ في حفظ السُّنَّة:

ولذلك أمثلة كثيرة:

الوجه الأول: ما اختص به الصَّحَابَة ﷺ من شدة الحرص على حديث رسول الله ﷺ وعظيم الاهتمام به والعناية به.

مثال: فقد أخرج البخاري ﷺ أنه قال: قيل لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: "ائذن لي أيها الأمير أُحدِّثك قولًا قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح، **سَمِعَته أُذُنَاي وَوَعَاهُ قَلبي وأبصَرَتهُ عَينَاي حِينَ تكلَّم به**"، فانظروا إلى هذا الرجل كيف يصف تلقِّيه عن

النبي ﷺ الحديث، فكل أدوات الاستقبال عنده تَهيَّأت لتلقِّي الحديث عن النبي ﷺ!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: من أَسعَد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟: قال: **"يا أبا هريرة لقد ظَنَنت ألَّا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لِمَا رأيتُ من حرصِك على الحديث"**[1]؛ فهذه الشهادة منه ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه أنه من أَحرَصِ الناس على الحديث.

الوجه الثاني: من وسائل حفظ الصَّحَابَة كذلك مذاكرتهم مع الرسول ﷺ، ومع بعضهم البعض، ومراجعتِه ﷺ فيما أشكل عليهم فهمه.

مثال: عن أبي مُلَيكة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ كانت لا تسمعُ شيئًا لا تعرفُه إلا رَاجَعت فيه حتى تعرفَه.

وأنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث فإذا قُمنَا تَذَاكَرنَاه فيما بيننا حتى نحفظَه".

كما أن النبي ﷺ حينما يأتيه الوحي يجمع الصَّحَابَة ويتلو عليهم ويكتب عنه الكتَبَة، ويراجع مع الكتَبَة، وجبريل عليه السلام يأتي

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

ويراجع مع النبي ﷺ كل هذا للمحافظة على القرآن، **أيضًا الصَّحَابَة كانوا يفعلون ذلك مع الحديث فيراجعونه مع بعضهم البعض.**

الوجه الثالث: **دعاؤُه ﷺ لبعض أصحابه بالتَّمكُّن**؛ فهناك بعض الصَّحَابَة لهم خصوصيّة.

مثال: أبو هريرة ﷺ راوية الإسلام؛ فقد شَكَى أبو هريرة إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله إني أسمع منك حديثًا كثيرًا أنسَاه"، فقال له النبي ﷺ: **"ابسط رداءك"** قال: "فبسطتُه"، فغرَف بيديه ثم قال: **"ضُمَّه"** فما نسيت شيئًا بعده"(١).

الوجه الرابع: ومن الوسائل **احتياط الصَّحَابَة في رواية الحديث وتثبُّتهم في قبوله**؛ فالحديث رواية وقبول، فكانوا يَتثبَّتون ويحتاطون في ذلك سواءً إذا رَوَوْا الحديث أو تلقَّوه؛ وذلك خشية الوقوع في الخطأ، والصيانة للسنة من الدَّخيل.

مثال: يقول عبد الرحمن بن أبي ليلى: "أدركتُ عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلا وَدَّ أن أخاه كَفَاه"؛ **ولهذا ورد أنهم كانوا يَتَدافَعُون الفُتيا،**

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩).

ولا يحدِّث أحدُهم حديثًا إلا يودُّ أن أخاه كَفَاه، وهذا كله من باب التحرِّي.

وكان أنس ﷺ إذا حدَّث عن رسول الله ﷺ حديثًا ففرغ منه قال: "أو كما قال رسول الله ﷺ"، ولهذا الأمر أحداث ووقائع كثيرة في سيرتهم.

الوجه الخامس: ومن الوسائل التي تُحافظ على السُّنَّة: **الرحلة في طلب العلم وطلب الحديث، والحرص على العلو في الإسناد**، فكان الصَّحَابَة ﷺ يسافرون في طلب الحديث، حتى لو كان حديثًا واحدا.

مثال: روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: "بلغني حديث عن رجل سمعه من الرسول ﷺ ..." مع أن جابر بن عبد الله ﷺ صحابي، لكن تَعدَّدت طرق سماعهم للحديث فكانوا يسمعون الحديث إما من الرسول ﷺ، أو من بعضهم؛ فهذا مثال على ذلك، قال جابر ﷺ: "**فاشتريتُ بعيرًا ثم شَدَدتُ عليه رحلي فسِرتُ إليه شهرًا**" فهو أنفق المال والوقت في طلب العلوِّ في الإسناد ولأن يسمع الحديث ممن سمعه من الرسول ﷺ؛ لأن هذه الحادثة كانت بعد وفاة النبي ﷺ، وإلا لو كان النبي ﷺ حيًّا وقتها

لسمع من النبي ﷺ، قال: "فَسِرتُ إليه شهرًا حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس رضي الله عنه فقلتُ للبوَّاب الذي في الباب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يَطَأُ ثوبه فاعتَنَقَني واعتَنَقتُه" وكلاهما صحابي، فقلتُ: "حديثٌ بلغني عنك أنك سَمِعتَه من رسول الله ﷺ في القصاص فخشيتُ أن تموتَ أو أموتَ قبل أن أسمعَه، فقال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: كذا وكذا" الحديث[١].

الوجه السادس: ومن الوسائل كذلك: **كتابة بعض الصَّحَابَة الحديث عن رسول الله ﷺ وذلك في عصره.**

مثال: فعل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وحتى لما نَهَته قريش اشتكى إلى النبي ﷺ قال له: **"اكتب، والذي بعثني بالحق لا يخرج منه إلا حقًّا"**[٢]، وشهد أبو هريرة رضي الله عنه بكتابة عبد الله هذا رضي الله عنه، فقال: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحدٌ أكثر حديثًا عن النبي ﷺ مني -أي: من أبي هريرة رضي الله عنه- إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٠٤٢) وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٣٠٢): "إسناده حسن".

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (١١٣)، ومسلم (٢٣٧٩).

يكتُب ولا أَكتُب"؛ فأبو هريرة ﷺ كان يعتمد على حافظته، وعبد الله بن عمرو إلى جانب الحافظة كان يَكتُب، وكانت له صَحِيفَة تسمى: الصَّادقة، أي: كل ما فيها حق وصدق.

ثالثًا: أثر التابعين ومن بعدهم من أهل العلم في حفظ السُّنَّة:

توَاصَلَ حفظُ السُّنَّة أيام التابعين ومن بعدهم؛ فهناك اهتمام عظيم بالسُّنَّة، ومن ذلك أنهم:

- حرصوا على حفظ السُّنَّة وتوثِيقها وضبطها.
- وتَثبَّتوا في قبولها، واحتَاطوا في روايتها بكل وسيلة تطمئن إليها القلوب.
- وكَثُرَت فيهم الرحلات طلبًا للحديث والعلوِّ في الإسناد، واشتهر ذلك عنهم.

مثال: قال أبو العالية ﷺ: "كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة، فلا نرضى حتى نركب إلى المدينة نسمعها من أفواههم" فهذه الرحلة في طلب الحديث وطلب العلم.

- وكذلك استعانوا في ذلك بالمذاكرة والكِتَابة، مع ما لديهم من الدِّقة في الحفظ والضبط، ومع التقوى والورع ما يجعلهم أبعد الناس عن الخوض في دين الله من غير علم ولا هدى.

مميِّزات مرحلة التابعين لحفظ السُّنَّة:

تميزت هذه المرحلة بأمور عدة، من ذلك:

١- تدوين السُّنَّة:

فبدأ تدوينها وكتابتها وجمعها في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ، وذلك حين أمر العلماء من أمثال أبي بكر بن حزم وابن شهاب الزهري وغيرهم بجمع حديث رسول الله ﷺ؛ وذلك خشية دروس العلم، أي: ذهاب العلم واختفائه، واعتبر العلماء تدوين عمر ﷺ هذا **أول مرحلة في تدوين السُّنَّة**.

ثم جاء عصر التصنيف فصُنِّفت الأحاديث في الكتب الجوامع وفي المسانيد:

- **إما بحسب الأبواب**: الإيمان، الصلاة، الجهاد إلى آخره، كما فعل الإمام مالك في الموطأ والبخاري ومسلم في صحيحيهما وأصحاب السنن.
- **وإما بحسب الصَّحَابَة** وهي التي تعرف بالمسانيد، كمسند الإمام أحمد ابن حنبل ﷺ وغيره من أصحاب المسانيد.

٢- صيانة السُّنَّة النبوية من الدَّخِيل مما لا يليق بها.

وتقدَّم الذِّكرُ عن عناية الصَّحَابَة بحديث رسول الله ﷺ احتياطًا في روايته وتثبُّتًا في قبوله؛ وذلك خوفًا مما قد يطرأ من الغفلة أو الوهم غير المقصود، فلم يكن بعضهم يكذِّب بعضًا، حتى أطَلَّت الفتنة برأسها بعد مقتل عثمان ﵁ **وظهر الكذب على رسول الله ﷺ لدواعٍ عدة:**

- إما بدافع التعصُّب لمذهبٍ ما والانتصار له.
- أو لتأييد بدعةٍ ما أراد أصحابها لها أن تنتشر.
- أو بدافع الحقد على الإسلام والضغينة عليه.
- أو بدافع التكسُّب الماديِّ الذي يكون بسبب الجهل، مثل ما وقع من بعض الزهاد ونحوهم.

إلى آخره من الأسباب؛ فكل ذلك ونحوه حَمَلَ العلماء النُّقَّاد والجهابذة والمتجرِّدين منهم على تتبع الأحاديث ومعرفة طرقها ورواتها وأحوالها من العدالة والضبط، أو ما يُضادُّها متقيِّدين في ذلك بآداب عُليا وقواعد حكيمة.

قال الإمام الترمذي ﵀: "فما حملهم -أي: المحَدِّثين- على ذلك عندنا -والله أعلم- إلا النَّصيحة للمسلمين، لا نظن أنهم أرادوا

الطعن على الناس أو الغيبة"، **فهذا من باب الحرص؛ ولهذا جعلوا الإسناد من الدين.**

والكلام على الروايات وإن كان قد بدأ في عهد النبوة إلا أنه كان في أضيق نطاق؛ فالوحي ما زال ينزل والرسول ﷺ بين ظهراني أصحابه ﭬ، وإنما اتسع ذلك في العهود التالية لعهده ﷺ؛ حيث كَثُر السهو وعظمت الغفلة، **وبدأ الكذب والامتحان يظهر في الناس ولا سيَّما بعد ظهور البدع والفتن**؛ ولهذا اشتدت العناية بدراسة الحديث سندًا ومتنًا، ونظام ذلك في كتب الرواية وكتب الحديث وكتب الأسانيد والكلام عن الرجال إلى آخره.

وهذا تراثٌ عظيم يَفتَخِر به المسلمون في كل عصر: أَنَّهم حافظوا على دين نبيهم ﷺ.

الدَّرسُ الخَامِس

المصدر الثاني: السُّنة النبوية (٢)

المسألة الثالثة: حجِّيَّة السُّنَّة النبوية:

وهذه قضية مهمة جدًّا وهي: أن السُّنَّة حجة في باب الاعتِقَاد وفي باب الأحكام، مثلها مثل القرآن الكريم؛ ولهذا حُفِظَت وعُنِي العلماء بها أيَّما عناية.

الأدلة على حجِّيَّة السُّنَّة:

والأدلة على حجِّيَّة السُّنَّة كثيرة، وهي ترجع إلى الكِتَاب والسُّنَّة نفسها وإجمَاع المسلمين، وإلى النَّظَر الصَّحِيح أي: الاستِدلَال العقلي، ونُفصِّل في ذلك تِباعًا.

أولًا: الدليل على حجِّيَّة السُّنَّة من القرآن الكريم:

كون السُّنَّة حجة ذُكِر في القرآن الكريم كثيرًا، من ذلك:

الأول: أن الله ﷻ جعل طاعة رسوله ﷺ من طاعته، ومن ذلك:

- قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء:٨٠].
- وقرن الله طاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بطاعة رسوله ﷺ فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩].
- فالأمر بطاعة الله ﷻ من خلال القرآن، وطاعة النبي ﷺ من خلال السُّنَّة أيضا؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر:٧].

وهذا كان معروفًا ومعمولًا به في عصور المسلمين كلها، إلا من شذَّ من أهل البدع.

الثاني: أن طاعة النبي ﷺ كطاعة الله ﷻ؛ ولهذا حذَّر الله ﷻ مخالفة رسوله ﷺ وتوعَّد من خالف بالخلود في النار ودل على ذلك:

- قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، والفتنة فُسِّرت بأنها القتل وفسِّرت بأنها الشرك إلى غير ذلك.
- وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

- وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

الثالث: جعل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ طاعة رسوله ﷺ من لوازم الإيمان، وجعل مخالفته من علامات النفاق.

- فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥]؛ فالله عز وجل جعل الخضوع لتحكيم النبي ﷺ وما قاله النبي ﷺ من شرط الإيمان، والرضا بذلك وتسليم القلب به ودفع الحرج والضيق والمنازعة من القلب عما يقوله النبي ﷺ.

الرابع: يذكر الله المنافقين الذين خالفوا أمر الله فلم يطيعوه ولا أطاعوا رسوله، بل أظهروا الطاعة وقالوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

- فقال الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[النور:٤٧]؛ فهذه في شأن المنافقين الذين ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾[آل

عمران:١٦٧]؛ فيقولون بألسنتهم: آمنا بالله والرسول، لكن الدليل على هذا الإيمان الطاعة والانقياد والالتزام، فأين هو؟

- فقال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء:٦١].
- ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦].

فالله ﷻ أو رسول الله ﷺ إذا قضى أمرا فليس هناك خيار في مخالفة أمر الله أو مخالفة أمر رسوله ﷺ.

الخامس: أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده بالاستجابة له وللرسول ﷺ.

- فقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:٢٤]؛ فالاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ فيه الحياة الحقيقية، فحياة القلوب الإيمان، وحياة الأبدان بالاستقامة، وبالتالي موت هذه القلوب يكون بالكفر.

ثم أمرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بردِّ ما تنازعوا فيه إليه ﷻ وإلى الرسول ﷺ فقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[النساء:٥٩]، بل

جعل ذلك شرط في صحة الإيمان فقال بعدها: ﴿إِن كُنتُم تُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ثانيًا: الأدلة السُّنيَّة على حجِّيَّة السُّنَّة:

وهناك أدلة كثيرة من السُّنَّة تدل على حجيتها ومن ذلك:

الدليل الأول: الحديث المشهور قال ﷺ: **"لا ألفَيَنَّ أحدكم متكئًا على أريكتِه يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"**(١)، وكأن النبي ﷺ يُخبِر عن حال من يُسَمَّون بالقُرآنيّين أو المشكِّكين في أحاديث النبي ﷺ أو الرّادين لها والطاعنين فيها؛ فيخبر عنهم ﷺ أنه سيأتي زمن فيأتي أحدهم ويقول: لا ألتزم بالسُّنَّة ويطعن في السُّنَّة؛ ولهذا جاء في رواية: "أن ما حرم رسول الله كما حرم الله".

الدليل الثاني: ما رواه أبو داود عن العِرباض بن سارية رضي الله عنه قال: "صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبَل علينا فوعَظَنَا موعظةً

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣) وقال الألباني في صحيح الجامع (٢/١٢٠٤): "صحيح".

بليغة وفيها: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين تمسَّكوا بها وعُضُّوا عليها بالنواجذ" إلى آخر الحديث[١].

الدليل الثالث: حديث في حجَّة الوداع، وحجة الوداع فيها دلالات خاصة؛ فهذا آخر عهد النبي ﷺ بالناس قال: "يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تَضلُّوا أبدًا: كتاب الله وسنتي"[٢]، فذكَرَ القرآن وذكر السُّنَّة، وهذا يقتضي أن السُّنَّة باقيةٌ ما بَقِيَ الكِتَاب محفوظةٌ ما حُفِظَ الكِتَاب -وهو القرآن-.

الدليل الرابع: قوله ﷺ: "نضَّر الله أمرأً سمع منا شيئا فبلَّغه كما سمع، فربَّ مبلِّغ أوعى من سامع".

إلى آخر الأحاديث التي تدل على حجيتها.

ثالثًا: دلالة الإِجمَاع على حجِّيَّة السُّنَّة:

وكثير من العلماء ذكروا الإِجمَاع على حجِّيَّة السُّنَّة؛ **كالإمام الشافعي حيث قال**: "ولا أعلم من الصَّحَابَة ولا من التابعين أحدا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١٤٤)، وأبو داود في سننه (٤٦٠٧)، وابن ماجه في سننه (٤٢) وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٢٦/٦): "إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات".

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

أُخبِرَ عن رسول الله ﷺ إلا قَبِلَ خبره وانتهى إليه وأثبت ذلك سنة، وصنع ذلك الذين بعدهم من التابعين والذين لقيناهم، كلُّهم يُثبتوا الأخبار ويجعلها سنةً يُحمَدُ من تبعها ويُعَاب من خالَفها، فمن فارق هذا المذهب كان عندنا مُفَارِقَ سبيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل العلم بعدهم إلى اليوم، وكان من أهل الجهالة"، وذكر مثل كلام الشافعي كثيرٌ من العلماء.

رابعًا: دلالة النَّظَر الصَّحِيح على حجِّيَّة السُّنَّة:

ودل النَّظَر الصَّحِيح على حجِّيَّة السُّنَّة؛ إذ كون النبي ﷺ رسول الله يقتضي:

- ✓ تصديقه في كل ما يخبر به.
- ✓ وطاعته في كل ما يأمر به.

ومن المسَلَّم به أنه ﷺ قد أخبر وحَكَمَ بأمور زائدة على ما في القرآن الكريم؛ فالتفريق بينها وبين القرآن في وجوب الالتزام بها والاستجابة لها تفريق بما لا دليل عليه، **بل هو عين التحَكُّم**.

ومرَّ بنا أننا لا نستطيع أن نصلي ولا أن نصوم ولا أن نأتي بكثير من الأحكام التشريعية من غير الرجوع إلى السُّنَّة؛ **فهي وردت**

في القرآن عُمُومَاتٌ وخطوطٌ عريضة، وتفاصيل ذلك إنما ورد في السُّنَّة.

إفادة خبر الواحد العلمَ والحجة:

وهذه مسألة مهمة ولها علاقة عظيمة بمسألة الاحتجاج، **فهل يفيد خبر الواحد العلم؟ وهل يحتج به؟**

فالسُّنَّة إما متواتر وإما آحاد، والمتواتر لا إشكال فيه، لكن الآحاد هو الذي ينزل عن درجة التواتر.

وهذه المسألة فيها ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الأول: من يقول: خبر الواحد يفيد العلم مطلقًا، أي: العلم اليقيني القطعي؛ فيُقطَع بأن الرسول ﷺ قاله.

الاتجاه الثاني: أن خبر الواحد يفيد العلم واليقين والقطع لكن بشروط.

الاتجاه الثالث: أن خبر الواحد لا يفيد العلم مطلقًا.

فالمذهب الأول ضد المذهب الثالث، **والوسط هو المختار.**

فالأول يقول: إن خبر الواحد يفيد العلم مطلقا هكذا، وهذا ضُعِّف؛ لأنه لا يُتَصور أن كل من نَسمَع خبره ويُسمَع كلامه

يُصَدَّق؛ ولهذا قالوا: "لا يوجد أحد من العقلاء يقول إن خبر كل واحد يفيد العلم"، أي: العلم اليقيني.

أما المذهب الثاني، فالشروط مثل الخبر المحتَفِّ بالقرائن والدلائل والملابسات.

والقرينة قد تتعلق بالخبر والمُخبِر على تفاوت:

- فهي قد تتعلق بالخبر نفسه.
- وقد تتعلق بالمخبِر أي: الذي تحدث بهذا الخبر.
- وقد تتعلق بالأمرين سواء؛ ففي علم الحديث يدرسون السند والمتن، فالقرينة إما أن تتعلق بالسند أو أن تتعلق بالمتن.

ويدخل في الأخبار المُحتفَّة بالقرائن:

- **الخبر المستفيض الذي رواه في أصله واحد**، لكنه استفاض واشتهر بين أهل العلم.
- **ومنها الخبر المُتَلَقَّى بالقبول عند الأمة**، كما أن الأمة تلقَّت صحِيحَيْ البخاري ومسلم؛ فهذا يجعل الخبر له قيمة علمية.
- **ومنها الحديث المسلسل بالأئمة الحفاظ** مثل: مالك عن نافع عن ابن عمر؛ فهذه يسمونها بالسلسلة الذهبية.

فإذًا الخبر الذي يفيد العلم هو الخبر الصحيح الذي يحْتَفُّ بالقرائن.

أدلة إفادة الخبر الصحيح المحتف بالقرائن العلم، منها:

- **أن التفريق بين التواتر والآحاد مسألة مستحدثة،** لم تكن معروفة لا في عصر الصَّحَابَة ﷺ ولا في عصر التابعين، ولا يدل عليها قرآن ولا سنة؛ فالمؤمنون صَدَّقوا الرسول ﷺ في كل ما أخبر به دون حاجة منهم إلى تواتر، فكان الصَّحَابَة ﷺ يجلسون عند النبي ﷺ زُرَافَات ووِحْدَانًا، وكانوا يصدِّقونه؛ ولهذا الله ﷻ أرسل رسله آحادًا، وبالتالي هم حُجَّة على الناس فيما يخبرون به.
- **أن الصَّحَابَة ﷺ كانوا يصدِّق بعضهم بعضًا فيما يخبرون به عن رسول الله ﷺ ولم يطالبوا بالتواتر،** كما مرَّ بنا أن جابر بن عبد الله ﷺ رحل في طلب الحديث شهرًا كاملًا من شخص واحد، ولم يشترط عليه التواتر؛ لأن هذه المسالة مُتعذِّرة وغير ممكنة، فما يهتمون به هو: صدق المخبر.

فالخبر عند الصَّحَابَة إذا صح وصحت نسبة الخبر إلى المخبِر وكان المخبر صادقًا عادلًا مُحقِّقًا للشروط المعروفة؛ فهو يفيد العلم.

وهذا حتى عند التابعين، فكانوا يتلقَّون الأخبار من الصَّحَابَة كيفما اتفق ويأخذون عنهم العلم، ويُصدِّقونهم فيه دون طلب حصول التواتر، وهكذا جلس كل عالم أو إمام يعلِّم طلبته وتلاميذه العلم، وهم يصدقونه على ذلك وهو فرد واحد.

فالقول بعدم إفادة خبر الواحد العلم يُعطِّل الدين والدنيا، وهو خرق صريح لإجمَاع الصَّحَابَة.

- **ومن الأدلة كذلك: أن الرسول ﷺ كان يبعث الآحاد من أصحابه إلى الملوك وإلى الوُلاة لتعليم المسلمين**، وكان كلامهم حجة، وكان الناس يستمعون إليهم ويَقبَلون كلامهم دون شرط التواتر.
- ومن الأدلة: أن المسلمين لما كانوا في قباء في صلاة الصبح أو في صلاة العصر -كما جاء في روايات-، فجاء واحد أخبرهم أن القبلة قد تحوَّلت إلى الكعبة، وكانوا يصلُّون إلى بيت المقدس، **فقبِلُوا خبره وتركوا الصلاة التي كانوا عليها** -وهي كانت صلاة شرعية وبحجة شرعية ومقطوع بها- واستداروا إلى القبلة الجديدة استجابةً لأمر الله ورسوله ﷺ،

وكان المبلِّغ لهم واحدًا، فلم يطالِبوا تواترًا ولم ينكر النبي ﷺ عليهم، بل شُكِروا على ذلك.

فالخلاصة: المذهب الثاني الوسط هو الصحيح.

أما المذهب الثالث وهو: أن خبر الواحد لا يفيد العلم سواء اقترن به قرينة أم لا فهذا مذهب ضعيف، وهذا هو المشهور عند كثير من المتكلمين، فيعتبرون أحاديث الآحاد لا تفيد العلم مطلقًا، ومذهبهم هذا عكس المذهب الأول الذي يقول إنه يفيد العلم مطلقًا.

فالأول غير سديد وغير صحيح، والثاني ضعيف وبالتالي عندهم أحاديث العقيدة لا يحتجُّ بها.

مسألة الاحتجاج بخبر الواحد في مسائل الاعتِقَاد:

مذهب المتكلمين من المعتزلة وغيرهم:

أما مسألة الاحتجاج بخبر الواحد فمثار الجدل عند المتكلمين من المعتزلة وغيرهم: **أنهم لا يحتجون بخبر الواحد في مسائل الاعتِقَاد.**

ونحن نعرف أن السُّنَّة نوعان: متواتر، وآحاد، والمتواتر لا إشكال فيه وإن كان قليلًا جدًّا بالنسبة للسنة الآحاد، لكن لو حذفنا السُّنَّة الآحاد عن الاحتجاج لتعطَّل كثيرٌ من السنن، وتعطل كثير من الأخبار الاعتِقَادية التي لم ترد في القرآن الكريم.

مثال: ما يتعلق بحالة البرزخ وعذاب القبر ونحوه، وكثير من تفاصيل المعاد ويوم القيامة والجنة والنار؛ فهذه التفاصيل لم ترد في القرآن الكريم وإنما وردت في السُّنَّة.

والذين ذهبوا إلى أن خبر الواحد لا يفيد العلم مطلقا بَنَوا على ذلك أنه: لا يجوز الاحتجاج به في مسائل الاعتِقَاد؛ لأن مسائل الاعتِقَاد عندهم يقينية –وهذا صحيح أنها مسائل يقينية– فإذًا لا يطلب فيها إلا القطع؛ ولهذا المعتزلة لا يقبلون خبر الواحد في الاعتِقَادات، **إلا إذا جاء موافقًا للعقل.**

وموافقة العقل هذه إشكالية؛ فما يسمونه عقلًا أو قضية عقليَّة أو دليلًا عقليًّا قد لا يكون كذلك.

وحتى إذا وافق العقل فهم يستدلون بخبر الواحد تعضيدًا واستئناسًا لا احتجاجًا، وإلا الحجة عندهم في مسائل الاعتِقَاد العقل.

وحتى القرآن الكريم لو خالف ما قرَّروه عن طريق العقل فالقرآن عندهم يُؤَوَّل حتى يتفق مع العقل.

فالخلاصة: أن الحديث عندهم إذا وافق العقل قالوا به، لكن استئناسًا وتعظيمًا وتكريمًا، وحتى إذا كان حديثًا متواترًا لا يُرَد لكن يمكن أن يؤوَّل كما تأولوا القرآن الكريم، وهنا تكمن الخطورة.

مذهب السلف في الاحتجاج بخبر الواحد:

أما السلف فمذهبهم: أن الخبر حتى ولو كان آحادا، إذا توفرت فيه شروط الصحة المعروفة الخمسة، واحتف بقرائن القبول - وهي كثيرة ومتنوعة كالخبر إذا تلقته الأمة بالقبول، والخبر الوارد في صحيح البخاري ومسلم، والخبر المسلسل بالأئمة الحفاظ إلى غير ذلك من القرائن- فيكون هذا الخبر مقبولًا ويقينيًّا، ويُستدل به في مسائل العقائد كما يُستدل به في مسائل الأحكام.

وبنوا على ذلك على أمور، وهي:

١- أن التفريق بين العقائد والأحكام في الأخذ بأخبار الآحاد بدعة لا وجود لها عند السلف، بل سيرة السلف وتصانيفهم تُثبت عكس ذلك تمامًا، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "وهذا التفريق -أي: بين العقائد والأحكام في قضية خبر الواحد- باطل

بإِجمَاع الأمة، فإنه لم تزل تحتجّ بهذه الأحاديث في الخبريات وفي العمليات".

فهذا التفريق حادث لا وجود له عند الأوائل، ولم يزل الصَّحَابَة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم يُنقَل عن أحد منهم البتة أنه جَوَّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الأخبار.

٢- ما تواترت به الأخبار عن النبي ﷺ في إرسال الرسل والدعاة آحادًا إلى أطراف البلاد؛ فالرسول ﷺ كان يرسل رسله: إما إلى الملوك كملوك الفرس والروم وغيرهم، وإما لتعليم الناس ودعوتهم، فكان يرسلهم آحادًا، وكان قولهم حجة، وقولهم كقول النبي ﷺ.

مثال: إرساله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، فقال له: "إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله عز وجل" إلى آخره(١)، ومعاذ واحد وبكلامه تقوم الحجة على أهل اليمن.

٣- أن التفريق بين العقائد والأحكام في الأخذ بخبر الواحد إنما بُنِيَ على أساس باطل وهو: أن العقيدة لا يقترن بها عمل، فقالوا: العقائد أخبار ما فيها أعمال، وأما الأحكام العملية فلا تقترن بها العقيدة.

ففرقوا بينهما فلا العقيدة فيها عمل، ولا الأحكام العملية فيها عقيدة، وهذا التفريق غير صحيح، وهو من البدع المحْدَثة، **بل كل عقيدة تتضمن عملًا، وكل حكم شرعي يتضمن عقيدة.**

مثال: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ﴾ [النور: ٢]؛ هذا حكم عملي لكن قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعد ذلك: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، فربط الحكم العملي بعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

الخلاصة:

أن السُّنَّة أحد مَصَادِر التشريع، وأن مسائل الاعتِقَاد من الشريعة، وأن السُّنَّة لقيت من الحفظ والعناية ما يجعلها مصدرًا صحيحًا سليمًا من مَصَادِر العقيدة، وأنها كالقرآن الكريم في الاحتجاج سواء كانت متواترة أو كانت آحادا.

ومن حاد عن هذا المسلك فقد ضل سواء السبيل.

الدَّرسُ السَّادِس

المصدر الثالث: الإِجمَاع

مسائل الإِجمَاع في العقيدة هي:

١- تعريفُ الإِجمَاع.

٢- حجِّيَّة الإِجمَاع.

٣- الإِجمَاع في أبواب الاعتِقَاد.

المسألة الأولى: تعريف الإِجمَاع:

وردت للإِجمَاع تعاريف كثيرة، والتعريف الذي نراه جامعًا هو قولهم: **اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ بعد وفاته في عصر من العصور على أمر من الأمور.**

محترزات التعريف:

- (بعد وفاته)؛ لأنه لا إِجمَاع أثناء النبوة، فالنبوة هي مصدر التشريع الوحيد.
- (في عصر من العصور)؛ أيًّا كانت هذه العصور، وإن كانوا يقولون: إن الإِجمَاع المنضَبِط هو إِجمَاع الصَّحَابَة ﷺ؛ لأن

عددهم كان محصورًا ومحدودًا وكانوا معروفين بالاسم، لكن مع ذلك يظل الإجمَاع حجة في كل العصور.

- (على أمر من الأمور) قالوا: الأمور هنا تشمل الأمور الشَّرعيَّة والأمور الدنيويَّة، لكن المقصود في مسائل العقيدة: الأمور الشَّرعيَّة.

المسألة الثانية: حجِّيَّة الإجمَاع:

وهذه المسألة تناقش سؤال: **هل الإجمَاع حجةٌ شرعيَّةٌ كما القرآن الكريم أو السُّنَّة النبوية؟**

جماهير العلماء على أن الإجمَاع حجة شرعية، وحكى بعضهم الاتفاق على هذه المسالة أي: الإجمَاع على أن الإجمَاع حجة.

الاستِدلَال على حجِّيَّة الإجمَاع من القرآن:

ويستدل على الإجمَاع بأدلة من القرآن الكريم من ذلك:

✓ استدلال الإمام الشافعي ﷺ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، وهذا الدليل يُعتبرُ من أقوى الأدلة على حجِّيَّة الإجمَاع.

والشافعي ﷺ يرى أن وجه الدلالة: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جمع بين مُشاقَّة الرسول ﷺ وبين مخالفة سبيل المؤمنين، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فجمع بين الأمرين، ولو كان اتباع غير سبيل المؤمنين مباحًا لما جَمَع بينه وبين المحظور، فما دام عطف اتباع غير سبيل المؤمنين إلى مُشاقَّة الرسول ﷺ= فتأخذ حكمها، فمُشاقَّة الرسول ﷺ غير مباحة، بل محرمة، وكذلك اتباع غير سبيل المؤمنين يكون محرمًا.

- ✓ ومن الأدلة قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣]، والوسط معناها: الخيار العدل كما جاء في كتب التفسير.

ووجه الدلالة من الآية: أنه لما كان قول الشاهد الواحد حجة كان قول الأمة وإِجمَاعها حجة، فيجب العمل بمقتضاه.

قال ابن تيمية ﵀: "فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل فإذا شهدوا أن الله أَمَرَ بشيء فقد أَمَرَ به".

وكما جاء في بعض الروايات: "ما رآه المسلمون حَسَنًا فهو عند الله حسَن"، وقال: "وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه"، وكذلك إذا شهدوا أن الله أخبر بشيء فقد أخبر به.

الاستِدلَال على حجِّيَّة الإِجمَاع من السُّنَّة:

ومما يستدل به على حجِّيَّة الإِجمَاع: السُّنَّة ومن ذلك:

✓ **حديث عمر** ﷺ أنه خطب الناس بالجابية فقال: "إن رسول الله ﷺ قام فينا كمقامي فيكم وقال: **"أكرموا أصحابي فإنهم خِيارُكم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"** إلى أن قال: **"ألا فمن سرَّه بَحبُوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد وهو من الاثنين أبعد"**(١).

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تأمر بلزوم جماعة المسلمين وتحذِّر من الفُرقَة؛ فهذا مما يُستدل به.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٠)، وأحمد في مسنده (١٧٧) باختلاف يسير، والترمذي في سننه (٢١٦٥)، وقال الألباني في إرواء الغليل (٦/٢١٥): "هو كما قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين".

✓ ثم يُستَدل بالأحاديث الكثيرة التي تفيد عصمة الأمة في اجتماعها، **فتُقرِّر الأحاديث الكثيرة أن الأمة معصومة في اجتماعها عن الضلال والخطأ** -والخطأ نوعٌ من الضلال-، وعصمتها هنا تكون فيما تقوله وتقرُّ به وتأمر به أو تنهى عنه، وبعض العلماء ذكر أن هذه الأحاديث التي تفيد عصمة الأمة تصل إلى حدّ التّواتر المعنوي.

ومن ذلك قوله ﷺ: **"إن الله لا يجمع أمتي، أو قال: أمة محمد ﷺ على ضلالة ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ إلى النار"**[١]، فهذه الأحاديث المتواترة معنًى لا لفظًا، أفادت عصمة الأمة عن الضلال، فلَزمَ أن يكون قولُها موافقًا للحق، وهذا يقتضي كونه حجة.

ولم يزل الصَّحَابَة ﷺ والتابعون ومن بعدهم يستدلون بهذه الأحاديث في إثبات الإِجمَاع.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٩)، والترمذي في سننه (٢١٦٧)، والنسائي في السنن (٨١٤٩)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٤٠٢): "صحيح".

دلالة النَّظَر الصَّحِيح على حجِّيَّة الإجمَاع:

دل النَّظَر الصَّحِيح على حجِّيَّة الإجمَاع، فقد ثبت قطعًا أن النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء، لكن شريعته دائمةٌ إلى قيام الساعة، فلم تنتهِ شريعته بموته وإنما تدوم إلى قيام الساعة، وهي الحجة الباقية على الناس.

لكن حوادث الناس لا تنقطع، والنصوص كما قال العلماء متناهية محدودة؛ فالقرآن مائة وأربعة عشر سورة والأحاديث محدودة، لكن الحوادث والوقائع تتجدد كل يوم، وكل فترة يستجد للناس أمور لا بد فيها من نص قاطع، لكن النصوص محدودة= **فكان الإجمَاع ضروريًّا** كما في أدلة الأحكام من قياسٍ واجتهاد واستصحاب؛ فكل هذا يتَّسِق مع دَيمُومة الشريعة.

ألا تستطيع الشريعة بما فيها من مرونة وقياسات واستصحاب ومصالح مرسلة إلى غير ذلك من أدلة الأحكام أن تستوعب كل المسائل المستجدة في حياة الناس؟!

وإن كانت مسائل العقيدة مسائل محدودة؛ لأنها تقوم على الخبر الغيبي فلا ينفع فيها الإجماع، فمسائل العقيدة كلها غيبيات:

كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره؛ **فهذه الأمور كلها غيبيات تحتاج إلى نص**، **فالأمور الغيبية لا ينفع فيها الإِجمَاع فهي ليست أمورًا اجتهاديَّة**، وإنما أمور تعتمد على النصوص من الكِتَاب والسُّنَّة.

المسألة الثالثة: فائدة الإِجمَاع في مسائل الاعتِقَاد:

أما فائدة الإِجمَاع في مسائل الاعتِقَاد: أنه يؤكد عليها، فمثلًا:

- لو كان النص ضعيفًا فبالإِجمَاع يتقوَّى.
- ولو كان ظنيًّا بالإِجمَاع يكون قطعيًّا.
- وإن كان يحتمل أكثر من دلالة فبالإِجمَاع تحدد دلالة واحدة.

فالإِجمَاع في مسائل العقيدة يكون من باب تظافر الأدلة، وإلا فإن العقيدة مبناها على النص؛ لأنها مسائل خبرية وغيبية، ولا يستطيع الإنسان أن يتكلم في الأمور الغيبية إلا بدليل.

فالإِجمَاع هنا من باب تظافر الأدلة وتكاثرها وتأكيد صحتها؛ لأن مسائل العقيدة لا قياس فيها ولا مجال فيها للرأي.

إذًا؛ **المقصود في باب الإجمَاع أن الإجمَاع يدخل في أبواب الاعتِقَاد لتعضيد الأدلة وتقويتها**؛ لدفع احتمال الخطأ الذي قد يتطرق للظَّنِّيات فيرتفع بفضل هذا إلى مقام القطعيَّات.

وقد حكى الإجمَاع في أبواب الاعتِقَاد علماء الإسلام كما فعل أبو محمد ابن حزم في كتابه مراتب الإجمَاع، وقد وافقه ابن تيمية على ذلك وإن كان قد خالفه في بعض المسائل التي ادَّعى فيها الإجمَاع.

فالإجمَاع يدخل في باب العقائد من هذا الباب، **فهو يؤكد ويقرر ويرفع الظن عن بعض النصوص**، لكن لابد للإجمَاع في باب الاعتِقَاد من مستند من كتاب أو سنة.

الخلاصة:

فالمقصود في باب الإجمَاع هو التعريف بالمصدر الثالث من مَصَادِر الاستِدلَال عند أهل السُّنَّة والجماعة، وبيان منزلته وحجيته، وأنه دليل مقطوع به في مسائل الاعتِقَاد لا سيما إجمَاع الصَّحَابَة ﷺ؛ لأنه إجمَاع منضبط ومعروف ومحدد، وأن الإجمَاع في أبواب الاعتِقَاد يستند إلى دليل سمعي نقلي من الكِتَاب أو السُّنَّة، فلا قياس ولا أمارة ولا نحوها من أمور الاجتهاد.

فأهل السُّنَّة في هذا الباب يزنون بهذه الأصول الثلاثة – الكِتَاب والسُّنَّة والإِجمَاع– جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال سواء:

- **باطنة** ومسائل الاعتِقَاد منها.
- أو **ظاهرة** وهي الأمور العملية مما له تعلق بالدين.

والإِجمَاع الذي ينضبط هو: ما كان عليه السلف الصالح.

الدَّرسُ السَّابِع

المَصَادِر الثانويّة

المصدر الأول: العقل (١)

ثانيًا: المَصَادِر الثانويّة:

بعد أن أنهينا الحديث عن المِصَادِر الأساسية والنَّقلية وهي:

١- الكِتَاب.

٢- والسُّنَّة.

٣- والإجمَاع.

ننتقل بالحديث عن المَصَادِر الثانوية وهي:

١- العقل.

٢- والفطرة.

فهذان المصدران يُعضِّدان ويُؤَكِّدان العقائد التي تحدثت عنها نصوص الكِتَاب والسُّنَّة.

❖ المصدر الأول: العقل:

يعدُّ العقل من أهم هذه المِصَادِر الثانوية وفيها مسائل عدة، وسنفصل هنا فيما يتعلق بالاستِدلَال العَقدِيّ.

مسائل مصدر العقل في الاستِدلَال العَقدِيّ:

١- التعريف بالعقل.

٢- منزلة العقل في الإسلام.

٣- العقل أحد مَصَادِر المعرفة.

٤- موقع العقل في مجال الاعتِقَادات.

المسألة الأولى: تعريف العقل:

التعريف الأول:

عرَّفَه بعض العلماء كأبي الوليد الباجي قال: "**العقل هو: العلم الضروري الذي يقع ابتداء ويعم العقلاء**"، فعرَّف العقل بالعلوم الضروريَّة؛ لأن العلوم نوعان:

- **النوع الأول:** علوم ضروريَّة اضطراريَّة.
- **النوع الثاني:** علوم نظريَّة كسبيَّة، تكون بالنظر والتأمل والاستِدلَال والكسب، وتتراكم فيها المعرفة، ويكون على أساسها التفاضل.

فالباجي هنا قَصَر العقل على العلم الضروري الذي يقع اضطرارًا ويعم جميع العقلاء، فما دام فلان عاقل فإذًا هو يتمتع بهذا العقل الضروري.

وهذا التعريف فيه إشكالية؛ لأنه أبعَدَ العلوم الأخرى كالعلوم النظريَّة، **فجعل العقل شاملًا لجميع العقلاء وبالتالي لا يتفاضل العقلاء هنا ولا يمتاز عاقل عن عاقل،** فلا يقال فلان ذو عقل أو فلان عقول.

مثال: ما وصف ابن عباس ﷺ نفسه بأنه نال هذا العلم بلسان سؤول وقلب عقول، فينتفي هنا إذا قصرنا العقل على العلوم الضروريَّة.

التعريف الثاني:

وهو التعريف الذي نختاره وهو الذي ذكره كثير من العلماء كالغزالي وابن تيمية وغيرهم: أن العقل يقع على أربعة معاني:

المعنى الأول: الغريزة المدركة التي تكون في الإنسان ويولد بها؛ فبها يعلم وبها يعقل.

مثال: كقوة البصر في العين والذوق في اللسان.

فهذه الغريزة شرط في المعقولات والمعلومات، وهي مناط التكليف إذا وجدت كان التكليف الشرعي لهذا الإنسان، فإذا بلغ سن التكليف لابد أن توجد فيه هذه الغريزة، وبالتالي يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فالفرق هذه الغريزة التي هي: العقل.

وهذه مسألة فطرية يولد بها الإنسان.

المعنى الثاني مما يُسمَّى عقلًا: **العلوم الضروريَّة**، وهذا الذي قصد إليه الباجي، وهي التي تشمل جميع العقلاء فلا يمتاز عاقل عن عاقل ولا يختلف عاقل عن عاقل.

مثال: الواحد نصف الاثنين، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، إلى غير ذلك من العلوم الضروريَّة التي تكون عند كل العقلاء ولا يتفاضلون فيها، بل هي أساس العلوم الكَسبيَّة.

المعنى الثالث: ومن الأمور التي يطلق عليها العقل: **العلوم النظريَّة** وهي: التي تحصل بالنَّظر والاستِدلَال والتَّأمل والكسب؛ فهذه يتفاضل ويتميز فيها الناس، فيقال: فلان ذكي وفلان عاقل وفلان حصيف إلى غير ذلك من أوصاف التفاضل.

المعنى الرابع: الأعمال التي تكون بموجب هذا العقل، فما فائدة العقل إن لم يَهدِ صاحبه إلى فعل الأمور المستحسنة وترك الأمور المستقبحة؟

ولهذا قال الأصمعي رحمه الله: "العقل هو: الإمساك عن القبيح وقصر النفس وحبسها على الحسن"، فالعاقل لا يفعل قبيحًا، وإنما يحدِّث نفسه على فعل الأمور الحسنة أو المستحسنة.

وقد قيل لرجل وصف نصرانيًّا بالعقل: "مه! -أي: اسكت- إنما العاقل من وجد الله وعمل بطاعته"، هذا هو العقل، أما النصراني الذي يقول باسم الأب والابن والروح القدس! فهذا انتفى عنه هذا العقل خاصة، فلا يُسمَّى عاقلا ولو كان عاقلا لما فعل ذلك.

الدليل: كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن قول أصحاب النار: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، أي: لو كنا نتمتع بالسَّمع الصحيح ونتَعَقَّله ما كنا في أصحاب السعير.

فالعقل يجمع هذه المعاني الأربعة: الغريزة، والعلوم الضروريَّة، والعلوم النظريَّة، والأعمال التي تترتب على العقل.

وكل ذلك يكون معنًى للعقل.

المسألة الثانية: منزلة العقل في الإسلام:

الإسلام احتَفَى بالعقل، بل احتفاؤُه أكثر من الذين يُمَجَّدون العقل من الفلاسفة القُدامَى والمعاصرين، الذين يُمجِّدون العقل لكنهم يُسيئون إليه إساءة بالغة، كما يمجدون الحرية وهم أبعد الناس عنها.

فالمذاهب هذه التي أرادت تمجيد العقل والرفع من شأنه حسب زعمهم= لم ولن يصل إلى عُشر مِعشَار ما بلغه الإسلام من تكريمٍ للعقل وتشريفٍ له.

وهذا إذا لم نَقُل: إنهم أساؤوا إلى العقل أيما إساءة، حيث أوغلوا به في مفاوز ومجالات لا يهتدي فيها إلى سبيل، فأدخلوا العقل في غير مجاله، فهذا العقل لا ينطق هنا بالحقيقة ولا بالصواب، بل بالخطأ والاضطراب.

الحيرة والتناقض مآل كل من أقحم العقل في غير مجاله:

ولهذا صاروا متناقضين متناحرين متنابزين بالألقاب، وكلٌّ يدَّعي أنه صاحب عقل وصاحب يقين.

فهؤلاء أصحاب العقل على ما بينهم من الاختلاف والتنازع، كلٌّ يدَّعي استناده إلى العقل وإلى قيام الحجة معه وظهور البرهان

عنده، **ومع ذلك يُجمِعون على أن حجة العقل قطعية**، وهم متنازعون متنابزون بالألقاب، يكفِّر بعضهم بعضًا، ويُضلِّل بعضهم بعضًا، ويخطِّئ على الأقل بعضهم بعضًا، ومع ذلك يأتون بالمسالة وضدها.

يقول ابن قتيبة ﷺ مُبَكِّتًا على أمثال هؤلاء: "وقد كان يجب مع ما يدَّعونه من معرفةٍ بالقياس وإعداد آلات النظر ألَّا يختلفوا كما يختلف الحُسَّاب والمِسَّاح والمهندسون؛ لأن آلاتهم لا تدل إلا على عدد وعلى شكل واحد، **فما بال هؤلاء أكثر الناس اختلافًا! لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمرٍ واحد في الدين**"؛ ولهذا لو نظرنا في كتب أهل الكلام وكتب أهل الفلسفة نجد مذاهب وأقوال شتى متضاربة ومتعارضة ومتناقضة لا يكاد يتفقون على مسألة واحدة، ومع ذلك يدَّعون أنهم هم: أصحاب النظر الشديد والعقل الرشيد!

وهذا شأن كل من أعرض عن الكِتَاب والسُّنَّة، وعن كلام الله وعن كلام رسول الله ﷺ= أن يكون أمره مختلفًا.

الدليل: قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ﴾[البقرة:١٣٧]، أي: في اختلاف.

فالإسلام قد كرَّم العقل تكريمًا عظيمًا ظهر ذلك في أمور عدة، ومن ذلك:

١- كرَّمه حينما **جعله مناط التكليف**، فلا تكليف إلا بعقل والمجنون لا يُكلَّف.

الدليل: في الحديث قول النبي ﷺ: **"رُفِع القلم عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ"**(١)، فكل هؤلاء قد رفع عنهم قلم التكليف؛ لأن العقل هو مناط التكليف.

٢- **فضَّل الله الإنسان بالعقل** على كثير من المخلوقات الأخرى.

٣- وكرمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حينما **وجه هذا العقل إلى النظر والتفكر والتأمل في النفس وفي الكون وفي الآفاق؛ ليتعظ ويعتبر ويكون أقرب إلى الله عَجَّلَ.**

الدليل: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، أي: كلما تعمَّقَ الناس في العلم كلَّما اقتربوا من الله؛

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٩٩)، والترمذي في سننه (١٤٢٣)، والنسائي في السنن (٥٦١١)، وابن ماجه في سننه (٢٠٤١)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٤١/١): "صحيح".

ولهذا أكثر الذين أسلموا في أوروبا وفي الغرب إنما كان من هذا الباب: باب العلم؛ فأكثر الذين دخلوا في الإسلام إنما هم علماء وخبراء في مجالاتهم المتنوعة والمتعددة من العلوم الطبية والعلوم الكونية وغيرها من العلوم، من خلال علومهم يختارون الإسلام دينًا لهم بعد طول بحثٍ وطول تأمُّل، فالإسلام يحثُّ العقل على التَّأمل؛ ليتَّعظ ويعتبر وليعرف الحقيقة والصواب.

٤- بالعقل تُسخَّر نعم الله ﷻ ويُستفَاد منها.

٥- أن الله ﷻ **أَكرَمَ هذا العقل بإمساكه عن الولوج والدخول فيما لا يُحسِنُه ولا يهتدي فيه على سبيل؛** وذلك رحمةً به وإبقاءً على قوته وجهده، حتى لا يضيع وقته وتضيع الجهود في أمور هو لا يُحسِنُها.

مثال: الأمور الغيبية التي تحتاج إلى نصوص، فلا تُعرَف أحوال البرزخ وما يدور في القبر من أحداث وأحوال، فلا العقل ولا الحس يهتدي فيه؛ فهنا يتلقى عن الشرع.

وذلك مثل: إخبار النبي ﷺ عمَّا يدور في القبر، قال ﷺ: **"القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار"**(١)، فلو فَتَحنا جميع القبور الآن لن نجد فيها ما يدل على أن هذا القبر فيه جنة ونعيم أو آخر فيه نار وعذاب، ما نجد إلا عظامًا نخرات، **لكن الخبر يقول: القبر واحد من أمرين:**

١. إما روضة من رياض الجنة.

٢. أو حفرة من حفر النار.

فالعقل هنا يصدِّق هذا الخبر ولا يعترض عليه؛ لأنه ثبت حسيًّا وواقعيًّا أن كثيرًا من الأمور اكتشفناها الآن في هذا العصر الحديث بعد أن وجدنا وسيلة اكتشافها، وهي موجودة قبل أن تكتشف.

وذلك مثل: ما يتعلق بالبكتيريا والفيروسات وغيرها، كان موجودًا قبل أن تكتشف، لكن لم تكن تُعرَف؛ لأن وسيلة اكتشافها لم تكن موجودة، وكذلك الأمور الغيبية؛ ولهذا قال الله ﷻ في أحوال

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٦٠)، والطبراني في المعجم (١٤٢٣٣)، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٦٨٠): "حسن".

الآخرة: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق:٢٢]، فالأمور التي لم تكن تُدرَك في الدنيا سيُدركها صاحبها يوم القيامة.

٦- والله ﷻ خَصَّ أصحاب العقول بالمعرفة التامة لمقاصد العبادة وحِكَم التشريع، وهذا مما كرَّم الله به العقل.

أمثلة:

- قال الله ﷻ بعد أن ذكر جملةً من أحكام الحج: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

وكثير من الآيات التشريعية التي فيها ما يجب فعله أو ما يجب تركه تنتهي بمخاطبة أهل العقول وأهل الألباب وأهل النُّهى وأهل الحِجَا؛ لأنهم أكثر الناس فهمًا.

- وقال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩]، فكيف القصاص الذي هو: الموت والإعدام فيه حياة؟ **فهذه لا يفهمها إلا أولوا الألباب.**

٧- قَصَرَ الله ﷻ الانتفاع بالذكر والموعظة على أصحاب العقول.

الأدلة على ذلك:

- قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

- وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف:١١١].
- وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[العنكبوت:٣٥].

٨- ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أصحاب العقول، **وجمع لهم النظر في ملكوته والتفكر في آلائه، مع دوام ذكره ومراقبته وعبادته،** فجمع لهم بين النظر والتأمل في الملكوت، وفي مخلوقات الله، وفي آلاء الله وفي نعم الله المتعددة، وهذا يُذكِّرهم بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ وعبادته وحمده وشكره.

الدليل: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾[آل عمران:١٩٠].

فمن هم أولوا الألباب؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾[آل عمران:١٩١]، إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[آل عمران:١٩٤].

وهذا بخلاف ما عليه أصحاب المذاهب الضالة في العقل فمنهم:

- ☒ **من اعتمد العقل طريقًا إلى الحق واليقين مع إعراضه عن الوحي بالكلية**؛ كما هو حال **الفلاسفة**.
- ☒ **من أسقط حكم الوحي عند التَّعَارُض المُفتَرَى بين العقل والنَّقل**؛ كما هو حال كثير من **المتكلمين**.
- ☒ ومنهم من جعل الحق هو **ما تشرح به نفسه وتفيض به روحه**، وإن خالف ذلك أحكام العقل الصريحة أو نصوص الوحي الصحيحة؛ كما هو حال **الباطِنيَّة وغُلَاة الصوفية**.
- ☒ ومنهم **الإمامية من الشيعة الرافضة** الذين **يعارضون الوحي بالأقوال والأحوال المنسوبة إلى أئمتهم أو أئمة أهل البيت** زورًا وبهتانًا يعارضون بها نصوص الوحي، بل يعارضون بها العقل الصريح.

فكل هؤلاء محجوبون عن استخدام العقل الاستخدام الصحيح، وإلا لو كانوا عقلاء ما فعلوا ذلك، ولو كان النصارى عقلاء ما فعلوا ذلك وما اعتقدوا مثل هذه الاعتِقَادات الباطلة.

وهؤلاء الرافضة الذين يضربون أنفسهم في كل عام حزنًا على الحسين -ما يسمى باللطم- لو كانوا عقلاء ما فعلوا ذلك.

فأهل العلم والإيمان ينظرون في ملكوت خالقهم نظرًا يستحضر عندهم قوة التَّذكُّر والاتِّعاظ، وصدق التَّوجه إلى الخالق الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من غير أن يخطر ببال أحدهم ثَمَّة تعارض بين خلق الله وبين كلامه.

الدليل: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

٩- **أن الله ﷻ ذم المقلدين لآبائهم**؛ لأن هؤلاء أَلغوا عقولهم واكتفوا بالتقليد؛ لحُسنِ ظنهم بآبائهم، فتنكَّروا لأحكام العقول فضلًا عن أحكام الشرائع، كل ذلك رضا بما صَنَع آباؤهم؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة]، فجرَّد أمثال هؤلاء الذين اكتفوا بتقليد الآباء والأجداد من العقل، مع أن الآباء والأجداد إذا خالفوا الشرع فقد خالفوا العقل،

وإذا خالفوا العقل فقد خالفوا الشرع، فلا ينبغي تقليدهم في ذلك.

١٠- ومن تمجيد وتعظيم الإسلام للعقل أنْ **حرَّم الاعتداء عليه حسيًّا ومعنويًّا** حتى لا يُعَطَّل العقل عن إدراك المنافع.

أمثلة ذلك:

- ✓ حرم الله ﷻ على المسلم شرب المسكِر والمفتِّر وكل ما يُخَامِر العقل ويغطِّيه عن مصالحه.
- ✓ جعل الإسلام الدية كاملة في الاعتداء على العقل غير الاعتداء على اليد أو على القدم، فالاعتداء على العقل فيها الدية كاملة لأهمية العقل؛ ولأن من فَقَد عقله بسبب ضرب أو اعتداء كأنما فَقَد نفسه فقد ضاعت المنفعة؛ ولهذا قال عبد الله ابن الإمام أحمد: "سمعت أبي يقول: "في العقل دية"، أي: دية كاملة؛ كأنها دية نفس، وحتى أن ابن قدامة قال: "لا نعلم في هذا خلافًا".

١١- **شدَّد الإسلام في النهي عن تعاطي كل ما تنكره العقول وتنفر منه.**

أمثلة على ما نُهي عنه:

☒ **التطير والتشاؤم** سواءً بصفر، أو ببعض الأعداد، وبعض الحيوانات والطيور، فالتشاؤم كله مرفوض؛ لأن هذه الأمور كلها لا تستند لا لشرع ولا لعقل.

☒ **الاعتِقَاد في الأنواء وإتيان الكهان والسحرة**، وكل من يدعي الغيب.

☒ **تعليق التمائم** وغيرها من الحروز إلى آخره.

وهذا فيه نصوص كثيرة جدًّا، وكل هذا من باب احترام العقل وتوفير جهد العقل لما ينفع صاحبه.

مع أمر الشارع العبد أن يأخذ بالأسباب ويتوكل على خالق الأسباب.

والدليل على ذلك: كما قال ﷺ: **"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو**

أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان"[١].

هذا وغيره من باب العناية بالعقل وتعظيمه وترشيده وتوفير جهده لما يصلح حال الإنسان في الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

الدَّرسُ الثَّامِن

المصدر الأول: العقل (٢)

المسألة الثالثة: العقل أحد مَصَادِر المعرفة:

بعد أن تم التعريف بالعقل، وذكر أهميته وتعظيم الإسلام له نشرع في العقل باعتباره أحد مَصَادِر المعرفة؛ **وذلك باعتبارين:**

١- العقل باعتباره أحد مَصَادِر المعرفة بشكل عام.

٢- وباعتباره أحد مَصَادِر المعرفة الدِّينيَّة بشكل خاص.

العقل في المخلوق صفة كمال له حدوده البشرية:

فالعقل في الإنسان كغيره من الصفات الكمالية أي: كالسَّمع والبصر والحركة والحياة، ولا شك أن صاحب العقل أفضل من غيره، فهي وإن كانت كمالًا في حق الإنسان إلا أن لها حدود لا تتجاوزها ولها أقدار لا تتخطاها.

فالإنسان مخلوق وصفاته مخلوقة، وهذه الصفات وإن كانت كمالات **لكن يعتريها ما يعتري المخلوق من القوة والضعف**

والخوَر، والوجود والعدم، والصحة والمرض إلى آخره من أنواع العوارض التي تعرض بحياة الإنسان.

والعقل أيضا كذلك، فجعل الله له حدًّا في إدراكه الأشياء ينتهي إليه ولا يستطيع أن يتعداه، فلم يجعل له سبيلًا إلى إدراك كل مطلوب، وإنما له حدود.

ولو كان ذلك –وهو أن العقل يدرك كل ما يريده صاحبه– للزم عنه:

- **تَسَاوى العقل البشري مع العليم الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون!
- ولو كان العقل يدرك كل مطلوب؛ لاستغنى الخلق به عن الوحي **فلا داعيَ لإرسال الرسل وإنزال الكتب اكتفاءً بالعقل**، والله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، فالحجة على الخلق في الرسالات وليس في العقول.

فإن العقول يعتريها من أنواع الضعف ما يعتريها وأحيانًا يغلب عليها الهوى، فكم من عقلاء يتصرفون بأمور يرفضها العقل.

مثال: الذين يتعاطون المخدرات والخمور والمسكرات، بل يتعاطون التدخين.

كل هؤلاء وإن كانت لهم عقول، لكن مع ذلك يتعاطون أشياء ترفضها العقول.

فمن الأمور التي أجمع عليها كل الناس بشتى جنسياتهم وأديانهم وأماكنهم ومواقعهم: **أن التدخين يضر بالصحة**، فهذا أمر مجمع عليه وأصدرت منظمة الصحة العالمية قرارًا ألزمت به شركات التدخين أن تضع على علب السجائر هذه العبارة: "التدخين يضر بالصحة ننصحك بالامتناع عنه"، ومع ذلك ما أكثر الذين يتعاطون هذه الآفات!

أليست لهم عقول؟

وفيهم الخبراء والعلماء والفلاسفة وحتى الأطباء المتخصصون في مجالات الطب المتنوعة!

فالعقل قد يغلبه الهوى وتغلبه الشهوة، وقد تغلبه بعض المصالح المضمونة.

فالمقصود بالإدراك إذًا: العلم بالشيء بذاته جملةً وتفصيلًا، فالعقل لا يعلم بالأشياء جملة وتفصيلًا ولا يعلم صفات الأشياء وأحوالها وأفعالها إلى آخره، والله ﷻ هو الذي يحيط بكل شيء علمًا على وجه الكمال والتمام؛ بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من ذلك.

أما العقل بخلاف ذلك قطعًا، **فالعقل وإن أدرك فإدراكه يكون لبعض هذه الأشياء،** وهذا البعض فيه قصور وضعف وغفلة ونسيان وجهل، وفيه عدم الإحاطة، إلى غير ذلك من أحوال القصور والضعف.

مثال ذلك: هذه الروح التي هي سِرُّ الحياة في الإنسان، وهي وُصِفت بأنها تخرج من الإنسان فيكون الموت، وتدخل إليه فتكون الحياة، وتنفصل عنه في النوم فتقطع المسافات الشاسعة وتزور البلاد النائيات وتفعل من الأعاجيب ما لا يقع على بال، ويرى المرء بنومه ما لم يكن يحظى برؤيته في اليقظة!

ومع ذلك لا تُعرَف لهذه الروح كَيفيَّة معينة ولا حقيقة مدركة غير أنها: تذهب وتجيء، وتصعد وتهبط، وتدخل وتخرج، وهي مع ذلك حيَّة وعالمة وقادرة وسامعة وبصيرة، كما جاءت بذلك النصوص ودلت على ذلك الشواهد العقليَّة، **ومع ذلك العقول قاصرة عن تكييف هذه الروح وعن تحديدها**؛ ولهذا لما سُئِل رسول الله ﷺ عن الروح أي عن كيفيتها وحقيقتها كان الجواب من العليم الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء:٨٥]، وإلى الآن هذه الروح تُحيِّر العقلاء والعلماء.

فالعقل كذلك إنما يستند في أحكامه إلى معطيات الحس وهي: الحواس الخمسة:

- السَّمع.
- والبصر.
- والذوق.
- والشم.
- والحس.

فهذه هي الرسل التي ترسل المعلومات إلى العقل، وهي التي تنقل مدركاتها عن الأشياء الموجودة والمحسوسة والمشهودة إلى العقل.

ودور العقل: أن يقوم بعملية التركيب والتحليل، والتجميع والتفريق، وقياس الأشباه والنظائر، واستنباط القواعد واستخراج النتائج، واستصدار الأحكام، وهو في كل هذا العمل إنما يعتمد على هذه المعطيات الحسية التي وردت إليه.

ولذلك لا يُدرِك العقل الأمور الغيبية؛ لأن الحواس الخمس لا تستطيع أن تصل إليها، وبالتالي لا يملك العقل معلومات عنها؛ لأن الأمور الغيبية لا تقع عليها الحواس الخمس، وبالتالي لا يجوز له أن يتكلم.

وإذا تكلم صاحب هذا العقل فهو: قد نطق بالباطل والخطأ وبالخيالات وقد يسميها: العقليات، لكنها ليست بأمور عقليَّة؛ لأن العقل لا يستطيع.

أقسام العلوم من حيث إدراك العقل لها:

ولمعرفة ما يمكن للعقل إدراكه وما لا يمكن نتحدث عن أقسام العلوم حتى تتضح هذه الأمور أكثر فأكثر، **فالعلوم من حيث إدراك العقل تنقسم إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: العلوم الضروريَّة:

وهي: العلوم التي لا يمكن التَّشكيك فيها، فهي تلزم جميع العقلاء ولا تنفك عنهم، ولا يتفاضل فيها الناس، فما دام هذا الإنسان عاقلًا فهو يملك هذه العلوم الضروريَّة.

أمثلة:

- علم الإنسان بوجود نفسه.
- وأن الاثنين أكثر من الواحد.
- واستحاله الجمع بين النقيضين، كالجمع بين الحياة والموت، والحركة والسكون، أو الوجود والعدم.

إلى غير ذلك مما يسمى بقوانين العقل الضروريَّة.

فهذه العلوم ضروريَّة موجودةٌ عند كل عاقل، وهي أساسية بدونها لا يسمى هذا الإنسان عاقلًا، بل يسمى مجنونًا معاقًا عقليًّا إلى آخره، حتى توجد هذه العلوم الضروريَّة، وهي مهمة جدًّا للعلوم النظريَّة.

القسم الثاني: العلوم النظريَّة الكسبيَّة:

وهي: التي تقوم بالتأمل والنظر والاستِدلَال، وتحصل بالحوار والنقاش والسؤال والجواب، وهذه لا تنفع صاحبها بدون العلوم الضروريَّة؛ لأنها تعتمد على العلوم الضروريَّة.

توضيح ذلك: كجهاز الحاسوب فيه برامج تشغيل أساسية كالويندوز في الجهاز، فإذا لم يوجد هذا البرنامج فكل البرامج والتطبيقات الأخرى لن تعمل إلا بوجود البرامج الأساسية.

كذلك العلوم النظريَّة التأمُّلِيَّة الاستِدلَاليَّة، لا يمكن أن توجد بدون وجود العلوم الضروريَّة.

ففائدة العلوم النظريَّة أنها كثيرة ومتنوعة ويتفاضل فيها الناس، وهي تدخل في مجالات كثيرة في الطبيعيات، والعلوم الحسية، والرياضيات، والصناعات.

وهذا النوع من العلوم النظريَّة فيه قسمان:

١- **قسمٌ يتمحَّض العمل فيه للعقل،** وهذه عادة تكون في العلوم المفضولة كالأمور الطبيعية والرياضيات والطب والصناعات والحِرَف، فهذه تركها الله ﷻ لعقل الإنسان يعمل فيها ويطور نفسه ويتأمل.

ولهذا نقول: هناك فرق بين الإبداع والابتداع، فنحن مأمورون بالإبداع وأن نُعمِل عقولنا فيما نُحسِنُه، ومأمورون بالاتباع، ومنهيُّون عن الابتداع أي: أن نبتدع في الدين ما ليس منه وأن نظن أن هذا من الإبداع، لا!

والخلاصة:

- الإبداع يكون في الأمور الحياتية الدنيوية، وهذه مطلوب منا أن نسعى إلى تطويرها وإلى الاستفادة منها قدر الطاقة.
- أما أمور الدين فهي محسومة بالنص، إلا ما كان له مجال من الاجتهاد.

٢- قسمٌ يجمع بين النظر العقلي والنظر الشرعي:

مثال: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]، فقال الإمام الشافعي: "فخلق لهم العلامات، ونصب لهم المسجد الحرام، وأمرهم أن يتوجَّهُوا إليه، وإنما توجُّهُهم إليه بالعلامات التي خلق لهم وبالعقل التي ركَّبَها فيهم، التي استدلوا بها على معرفة العلامات وكل هذا بيان ونعمة منه جل ثناؤه".

فنحن مأمورون بالعبادة والتوجه إلى المسجد الحرام والصلاة إلى جهة القبلة، وهذا لا يكون إلا باستخدام العقول، فجمع بين الأمر الشرعي والأمر العقلي.

واستخدام العقول هنا هو: كَيفيَّة الاهتداء إلى جهة المسجد الحرام، فنستخدم فيها عقولنا سواء بالنظر في النجوم، أو باستخدام الآلات الحديثة، أو بغيرها من الوسائل.

القسم الثالث: العلوم الممتنعة:

وهي: الأمور الغيبية التي لا مجال فيها للعقل إلا أن يُعَلَّمَها العقل، فلولا أن الله ﷻ أخبرنا عن الملائكة والجن والجنة والنار وأحوال البرزخ لما عرفنا ذلك، ولما اهتدينا فيها بالعقول ولا بالأدلة الحسية ولا غيرها.

الشريعة جاءت بمحارات العقول لا بمحالاتها:

فهذا المجال هو مجال الشرع والخبر عن الله ﷻ، والعقول هنا تُصدِّق فقط؛ لأن الله ﷻ لا يخبر عن شيء تحيله العقول أي: تقطع العقول باستحالته، كما قال الإمام الشاطبي: "**إن الشريعة جاءت بمحارات العقول لا بمحالاتها**" أي: الشريعة أتت بأمور تحيِّر العقل لكن لا يستحيل هذا الأمر في نظر العقل، فلا تأتي بشيء

يقتضي الجمع بين النقيضين، ولا ما يقتضي أن الاثنين أقل من الواحد.

فلا يمكن للشريعة أن تأتي بذلك، فحتى معجزات الأنبياء كعصا موسى، ليس مستحيلًا عقليًّا، وإن لم يتعوَّد الناس أن العصا تنقلب إلى كائن حي، فهي كانت في الشجرة كائنا حيًّا، ثم جفَّت ثم أعاد الله لها الحياة في شكل آخر في شكل حيَّة، فهذا لا يستحيل عقلًا؛ **ولهذا لا يوجد في معجزات الأنبياء أشياء تمنع العقول وجودها أبدا، وإنما أشياء تحير العقل**؛ ولهذا عجز عن محاكاتها وعن تحدِّيها المخاطبون بها.

المسألة الرابعة والأخيرة: موقع العقل من المطالب الاعتِقَادية:

كنا في المسألة السابقة قسمنا المدرَكات العقليَّة إلى ثلاثة: علوم ضروريَّة، وعلوم نظريَّة، وعلوم ممتنعة وهي: الغيبيات ولا مجال للعقل فيها.

- **الأول: العلوم الضروريَّة:**

وهي: التي جادل الإسلام بها أصحاب العقائد الفاسدة، ففي القرآن الكريم يحثُّ الله ﷻ ويدعو الناس إلى تحكيم عقولهم: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠]، ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [الصافات:١٥٤]، وذلك

في آيات كثيرة جدًّا، وهذا هو النظر بالعلوم الضروريَّة؛ لأنها قوانين فطرية لا ينكرها إلا مكابر أو جاهل لا يتصور ما يقول.

أمثلة:

القرآن الكريم يطالبهم:

- أن يجمعوا بين المتماثلات.
- وأن يفرقوا بين المختلفات.
- وأن يلحقوا الشيء بنظيره.
- وأن يلحقوا الفرع بأصله.
- والاستِدلَال بالأثر على المؤثر.

ويذكِّرُهم دائما بتحكيم العقل والبعد عن الهوى الذي يُلجِئُهم إلى موقف حرج مع أنفسهم، حتى يظهر لهم التناقض والتنافر بين ما يعتقدونه من عقائد، وبين القوانين العقليَّة التي يستوي فيها كل الناس، **فبعد ذلك لا يبقى أمامه إلا الكفر:**

- فإما أن يكفر بعقائدهم ويوافق عقولهم وبالتالي يدخل في دين الله الذي هو دين العقل ودين الفطرة ودين المصلحة.
- أو يبقوا في هذا التناقض وهذا الاضطراب؛ كما هو حال أهل الشرك في كل زمان.

الدليل: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢].

فهل عاقل يقول هذا؟

وكان الواجب أن يقول: فاهدنا إليه!

لماذا يتخذ الإنسان لنفسه عداوة مع الحق ومع الصواب؟

ومع ما تقتضيه العقول وما تقتضيه المصلحة الحقيقية؟

فلماذا يعادي الإنسان نفسه؟

بل كان الواجب أن يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا إليه ووضِّحه لنا واهدنا إليه، فهذا كان الواجب لكن؛ لأنهم يرفضون كل جديد لا يوافق أهواءهم وشهواتهم، ويفوِّت عليهم ما يسمونه بالمصالح، وهي في الحقيقة ليست بمصالح فعادَوا الحق وقالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال:٣٢].

• الثاني: العلوم التي لا تدركها العقول:

فمنها: مسائلُ الاعتِقَاد ولا سيَّما التفصيليَّة، فالعقل قد يدرك الأمور الكليَّة؛ كوجود الله ﷻ ووحدانية الله ﷻ وكمال صفات الله ﷻ.

لكن الأمور التفصيلية تحتاج إلى وحي كقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، فهذا لابد له من وحي، وهي من الصفات الخبرية لله ﷻ.

فالعقول لا يمكن أن تدرك الأمور التفصيلية في المسائل الغيبية إلا بوحي، وهذا الوحي يذكر أدلة هذه الأمور العقليَّة، فليست خبرًا مجردًا وإنما الوحي يذكر أدلتها العقليَّة حتى تستأنس بها العقول.

وكثير من مسائل الاعتِقَاد بعد معرفتها والعلم بها فإن العقول لا تدرك حقيقتها وكيفيتها.

مثال: الله ﷻ أخبرنا عن صفاته وأخبرنا عن أفعاله وعن أسمائه، وعن حقائقَ تتعلق باليوم الآخر من بعد الموت إلى الجزاء إلى الجنة وما فيها من نعيم والنار وما فيها من عذاب، لكن العقل لا يدرك حقائق هذه الأمور، ويعجز عن درك كَيفيَّاتها.

لكنه لا يُحِيلُها ولا يمنع من إمكان وجود هذه الأمور؛ لأن هناك فرق بين عدم الإدراك لها كما يقول العلماء: "**عدم العلم بالشيء ليس علمًا بالعدم**"، فهذه الأمور التفصيلية وإن أخبرت بها الشريعة، إلا أننا لا نعرف كيف هي، ولا نعرف حقائقها إلا يوم القيامة حينما ينكشف الغطاء كما يقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].

والرسول ﷺ قال: "في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"(١)، فهو فوق التصوُّر، فما في الجنة من نعيم؛ لا عين رأت قبل ذلك، ولا أذن سمعت قبل ذلك، ولا خطر على قلب بشر، فهو شيء فوق الخيال وهذا ما يتعلق بنعيم الجنة.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

الدَّرسُ التَّاسِع

الفطرة

❖ المصدر الثاني: الفطرة:

والفطرةُ قريبةٌ في المعنى من العلوم الضروريَّة.

وأهم مسائل مصدر الفطرة في الاستِدلَال العَقدِيّ:

١- معنى الفطرة.

٢- فطريَّة المعرفة.

٣- علاقة الفطرة بالعلوم العَقدِيّة.

المسألة الأولى: معنى الفطرة:

أولًا: المعنى اللغوي:

وله معانٍ عدة منها:

- فَطَر الشيء يفطُرُه وفطَرَه أي: **شقَّه**، والتفَطُّر بمعنى: التشّقُّق.

قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]، بمعنى: انشقَّت؛ وكما في الحديث عن عائشة رضي الله عنها: "أن النبي ﷺ كان يَقُوم من اللَّيل حتى تتفطَّر قدماه"[١].

- **الخِلقَة التي خَلَق اللهُ الناس عليها**، أي: الطبيعة؛ طبيعة الأشياء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ونجد المعاني اللُّغويَّة تَتَنَاسَبُ مع المعنى الاصطلاحي.

والفطرة في اصطلاح العلماء المحقِّقين هي: الإسلام الذي هو دين الله.

وهناك من عرَّفها بأمور أخرى لكن الراجح هو: الإسلام.

واستدلوا بذلك على أدلة كثيرة منها:

الدليل الأول:

قول النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة"، أي: يولد على الإسلام؛ لأنه قال بعدها: "فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

يمجِّسَانه"[١]، ولم يقل: أو يُؤسلِمانه، فمعناها إذًا: خُلِق أو وُلِد على الإسلام.

والإسلام هنا ليس بالمعنى التفصيلي وإنما المعنى العام، أي: عنده استعدادٌ لمعرفة الحق، ولو استمر على هذه الفطرة لا يختار غير الإسلام إلا أن تعرِضَ عوارِض.

ومن العوارض كما ذكر الحديث: **"فأبواه"**، ومن الممكن تفسيره بعدة معانٍ فهي قد تنطبق على:

- الأسرة.
- أو على المدرسة.
- أو على الشارع.
- أو على الإعلام.
- أو على المجتمع.

فهؤلاء هم الذين يُحرِّفون الفطرة عن مسارها، وإلا لو تُرِك الطفل لفطرته لاستمرَّ عارفًا ومحبًّا للإسلام والحق والشريعة التي تأتي من عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

[١] متفق عليه، أخرجه البخاري (١٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨) باختلاف يسير.

إذًا؛ الفطرة هنا بمعنى: الإسلام أي: **المعنى العام وليس المعنى التفصيلي**؛ لأن المعنى التفصيلي يحتاج إلى تعليم وإرشاد وتوجيه، وهذه هي وظيفة الرسل فهم: الذين جاؤوا بالأمور التعليميَّة التفصيليَّة، **أما الفطرة هنا فهي: الاستعداد**.

اللبن شراب الفطرة:

ولهذا عندما قُدِّم للنبي ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج شرابان:

- خمر.
- ولبن.

وفي ذلك الوقت لم يُحرَّم الخمر، ومع ذلك اختار النبي ﷺ اللبن وترك الخمر، فقيل له: "**لقد اخترت الفطرة**"(١)، أي: هذا هو شراب الفطرة الذي يتناغم مع طبيعة الإنسان.

ومما يبين ذلك: أنه لو شرب الإنسان الخمر أول مرَّة:

- رَفَضَتهَا المعدة فيَتَقَيَّأُها ويردُّها؛ لأنها ليست من شراب الفطرة.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٧٠٩)، ومسلم (١٧٣).

- ثم يضطرب عقله وتضطرب نفسه.
- ولو أَصَرَّ عليها تكثر عنده الأمراض التي تُصِيبُ الكلى والكبد وتَتَعدَّد أمراضه.

ولهذا ينصح جميع الأطباء بعدم تعاطي الكحول أو الخمور؛ فهو ليس شراب الفطرة؛ **إنما شراب الفطرة اللبن**.

الفطرة قد تنتكس:

الأصل ألَّا أحد يَضرُّه شراب اللبن إلا بسبب علة، ومن كان كذلك عليه أن يُعَالِج هذه العلة ويرجع إلى فطرته.

مثال: جاء رجل يشتكي إلى النبي ﷺ أن أخاه قد استَطْلَق بطنُه، -يعني: مصابٌ بالإسهال-، فقال النبي ﷺ: " **اسقِهِ عَسَلًا**"، فسقاه. فجاء إلى النبي ﷺ وقال: ما زاده إلا استِطلَاقًا -أي: زاد المرض-، فقال النبي ﷺ: "**اسقِهِ عَسَلًا**" مَرَّة ثانية، -فجاء يشتكي أن الأمر لم يتوقف بل ازداد سوءًا في الثالثة- فقال له: " **اسقِهِ عَسَلًا**" وأيضًا ازداد سوءًا فقال في الرابعة: "**صدق اللهُ وكذب بطنُ أخيك، اسقِهِ عَسَلًا**"، فَسَقَاه فبرأ[1].

---

[1] متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).

إذًا؛ كانت الوصفة من الله ﷻ الذي وصف أن العسل شفاء، والواصف هو النبي ﷺ، ولكن العلة في بطن هذا الإنسان، والنبي ﷺ كان مُصرًّا على الوصفة الطبية حتى حصل الشفاء.

الخلاصة:

الفطرة هي: الإسلام، وهو أشهرُ الأقوال وأصحُّها، وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل كما قال كثير من العلماء.

الدليل الثاني: قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ﴾ [الروم:٣٠].

الدليل الثالث: حديث: **"خلقتُ عبادي حنفاء، فأتتهم الشياطين فاجتالَتهُم عن دينهم"**، فالأصل في الإنسان أنه يولد على الفطرة، ثم يطرأ التغيير بعد ذلك كما في الحديث: **"وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرَتْهُم أن يشركوا بما لم أُنَزِّل به سلطانًا"**(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

إذًا؛ مما ينبغي العلم به: أنه إذا قيل: كل مولود يولد على الفطرة، أو على الإسلام، أو على هذه الملة، أو أنه خُلِقَ حنيفا، أي: مستقيمًا مائلًا إلى الحق عن الشرك، **فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم الدين، التفاصيل**؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل:٧٨].

ولكن المقصود: أن فطرَته موجبةٌ ومقتضيةٌ لدين الإسلام ومحبته، وتستلزم الإقرار بخالقها، ومحبته والإخلاص له.

ثم مُوجِبَات الفطرة ومقتضياتها تحصل بعد ذلك شيئًا فشيئًا بحسب كمال الفطرة واستعدادها وسلامتها عن المعارض من التَّهويد والتَّنصير والتَّمجيس، **ومن ذلك:**

- **أن كل مولود يُولد على الإقرار بفاطِرِه**، أي: بخالقه، ومحبته والإذعان لعبوديته؛ فلو خُلِّيَ هذا الانسان المفطور على الحق وأُبعِدَت عنه العوارض لم يَعدِل عن ذلك إلى غيره.
- **أنه يُولَد على محبةِ ما يُلائِم بدنه من الأغذية والأشربة**، وسبق التمثيل على ذلك بالخمر، فهو سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، فكل حيوان يهتدي إلى ما يناسب طبيعته.

مثال: الحيوانات التي تعتمد على الأعشاب إذا قُدِّمت لها اللحوم لا تأكل، وكذلك العكس فالحيوانات التي تعتمد على اللحوم إذا قُدِّمت لها الأعشاب لن تأكل، وحتى الاعشاب تختلف من نوع إلى آخر؛ فالله ﷻ ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

المسألة الثانية: فِطرِيَّةُ المَعرِفَة:

هناك قوانين أو سُنَنٌ فطريةٌ يرجع الناس إليها ليتعرَّفُوا من خلالها على الأشياء، **وهذه القوانين مغروزةٌ في فطرة كلِّ أحد من بني آدم صغارهم وكبارهم.**

وقد تُسمَّى بالضرورة العقليَّة؛ ومن أهم سِمَاتِها:

- أنها لا يتَفَاوَت فيها الناس ولا يختلفون.
- أنها لا يَستَغنِي عنها أحدٌ.
- أنها لا يُجادل في التصديق بها والتحاكم إليها إلا من فَقَد عَقلَه وطُمِست بصيرته، ومُسِخَت فطرته، وارتضى لنفسه طريق العناد والاستكبار.

منكرو فطريَّة المَعرِفة:

وهناك مَن كَابَر وأنكر الضرورة العقليَّة، ومنهم:

- **السُّوفَسطَائِيّين:**

وهم الذين يُجادِلون حتى في البديهيَّات من الأمور الحسِّيَّة وغيرها، فليس عندهم شيءٌ ثابتٌ مستقرٌّ، بل الكلُّ في حركةٍ وتغيُّر.

مثال: قد يأتي الواحد منهم يقرر شيئًا بنقيض ما أثبته بالأمس.

وذلك أن غايتهم في ذلك الجدل من أجل الجدل، وبالتالي يَتَنكَّرُون للثَّوابت والبديهيَّات.

ويكفي في بطلان زعمهم: أن من سَار على مِنهَاجِهِم= يصل في النهاية للشَّكِّ حتى في وُجُود نفسه؛ لأنه لا ثوابت عنده.

- **الفلاسفة ومن شايَعَهم وتَأثَّر بهم من المتكلمين:**

وهم الذين جعلوا القضايا نظرية؛ حتى قضية وجود الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلوها مسألة نظريَّة ليست فطرية وليست ضروريَّة! فيطلبون عليها الأدلة ويُتعِبون الأذهان في تقريرها، مع أن وجود الله ﷻ أظهر من وجود أيِّ موجود!

وَمِمَّا يُذكَر في نَقضِ دعواهم:

حكايةٌ تُحكى عن الفخر الرازي أن أصحابه وتلاميذه احتَفَوا به؛ لأنه استطاع أن يصل إلى ألَفِ دليل على وجود الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَمرَّت بهم امرأة عجوز فسألت عن سبب هذه البهجة؟

فقالوا لها: شيخنا وَصَلَ إلى ألف دليل على وجود الخالق.

فقالت هذه المرأة العجوز بفطرتها وسجيَّتِها: **ومتى غاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى تَبحثُوا عن أدلة وُجودِه؟ لو لم يكن عنده ألف شكٍّ لما وجد ألف دليل!**

أي: لولا أنه شاكٌّ لما بَحَث عن أدلة، وإلا معرفةُ الله ﷻ معرفةٌ فطريَّةٌ؛ فالناسُ مَفطُورون عليها كما هم مَفطُورون على العلم بالقوانين العقليَّة التي لا يُنازع فيها أحدٌ من عقلاء بني آدم، لأنَّ مبنى العقل على صحة الفطرة وسلامتها.

أمثلة على فطرية المعرفة:

المثال الأول: العلم بأن الحَادث لابدَّ له من مُحدِث:

الدليل: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

أمثلة:

- ✓ البُنيَان لابدَّ له من بانٍ.
- ✓ الكِتَابة لابدَّ لها من كاتب.
- ✓ والطفل الصغير في عمر السنتين أو الثلاث إذا ضَرَبَه أحد من الخلف يبحث عمَّن ضربه؛ لعلمه أن هذه الضربة لابد لها من ضارب، وهذا الفعل لابد له من فاعل، وهذا الأَثَرُ لابد له من مُؤثِّر.

فهذا يعرفُه كلُّ أحدٍ بفطرته، ولا يحتاج إلى استدلال ولا تأمُّل ولا نظر ولا مناظرة ولا مناقشة.

المثال الثاني: **العلم بأن الجزء أقل من الكل:**

مثال: لو أعطيت الصَّبيَّ الصغير في أول تَمِييزه تمرةً واحدةً، قد يبكي فإذا زِدتَه الثانية والثالثة يُسَرُّ وَيَهدَأ.

المثال الثالث: **العلم بأن المتناقضين لا يجتمعان ولا يرتفعان في آن واحد.**

أمثلة:

- الموت والحياة.
- الحركة والسكون.

- الوجود والعدم.

فوجود أحدهما ينفي وجود الآخر قطعًا، فالطفل أيضًا يعلم استحاله أن يُجمَع بين بقائِه في هذا المكان وذهابِه عنه، أو بقائِه في مكانين مختلفين في آن واحد.

فهذه أمور معروفة بالفطرة.

المثال الرابع: **أن يَعلَمَ الإنسانُ أن ما غاب عنه من الأشياء لا يناله إلا بسبب.**

مثال: لو سألت الطفل المميِّز عن شيء لا يَعرِفُه أنكَرَ، وقال: لا أدري.

فهذه من النماذج للعلوم الفطريَّة؛ ولهذا لا يُطلَب عليها دليل؛ لأنها معروفةٌ بالفطرة التي يستوي فيها جميع بني آدم.

علاجُ من فَسُدَت فطرته بالشُّبُهات:

لكن مع ذلك قد تَعرِض الشُّبُهات والوساوس لهذه العلوم الضروريَّة؛ كالتي عند السُّوفَسطَائِيّين الذين يُجادِلون في كلِّ شيء، ويُثبِتُون الشيء ونقيضه، والشيء وضده.

فهذه الشُّبُهات والوساوس لا يمكن دَفعُهَا بالبراهين النظريَّة والاستدِلَال، فالذي يصاب بهذا المرض لا يمكن أن يُعالَج بالاستِدلَال والنظر، **وإنما علاجُ هذا المرض:**

- **إما أن يُعَالَج بعلاجٍ مادِّيّ**؛ فقد يكون مريضًا مرضًا حسيًّا جسديًّا.
- **أو يُعالج بالإعراض عنه.**
- **أو يُعالج بالعقوبة**؛ **مثل:** ما وقع مع صبيغ بن عِسْل الذي جاء إلى عمر رضي الله عنه وكان يجادل الناس في بعض آيات القرآن الكريم، ويستخدم المشتبهات من الأمور، فجيء به إلى عمر وقد أعدَّ له عَرَاجِينَ النَّخل، فضَرَبَه على رأسه حتى قال الرجل: "حَسبُك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذَهَبَ الذي كُنتُ أَجِدُه برأسي".

والدليل: أن النبي ﷺ قال: **"يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟"** يعني: من خلق السماء والأرض؟ من خلق كذا؟ فيكون الجواب: الله، **"حتى يقول من خلق ربك؟"**.

فقال النبي ﷺ في وَصفِ العلاج: **"فإذا بَلَغَ ذلك؛ فليَستعِذ بالله ولِيَنتَهِ"**[١].

أي: لا علاج لهذا الوسواس إلا بالاستعاذة بالله ﷻ، والاعتصام به، والانتهاء، وقطع هذا التسلسل.

فهذا دليل على أن الشك في المعلوم ضرورةً وفطرةً= لا يفيد، **ولا علاج له إلا:**

١- الانصراف، والانتهاء.

٢- وطلب الهداية من الله ﷻ.

٣- والاستعاذة به من كيد الشيطان؛ ولهذا كان الشيطان يَخنَسُ عند ذكر الله، ويُوسوِس عند الغفلة؛ فسمي الوسواس الخناس.

الخلاصة:

الله ﷻ فطَرَ الناس على الدين الحق، أي: الاستعداد لقبول الدين ومحبته، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقهم على محبته ورجائه وعبادته، وهذه الفطرة لو خُلِّيت وعُدِمَ المعارِض لبَقِيَت على حالتها من

---

[١] متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) باختلاف يسير.

السلامة والاستقامة، لكن قد يَعرِض لها ما يُغيِّرُها ويُحوِّلُها إلى مِلَل الكفر من التَّهويد والتَّنصير والتَّمجيس إلى آخره، لكن إذا تُرِكَت وحالها فالفطرة تشهد بصحة وسلامة المعتقدات.

دلالة الفطرة على توحيد الربوبية:

وهذه من أعظم المسائل، فنجد أن الفطرة تدل على توحيد الربوبية؛ **إذ القلوب مَفطُورةٌ على الإقرار بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ**، وهي أعظم من كَونِها مَفطُورةً على الإقرار بغيره من الموجودات.

الأدلة:

أولا: **قال الله تعالى على لسان الرسل:** ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [إبراهيم: ١٠]، **فيُمكِن أن تشكَّ في أيِّ شيءٍ إلا في وُجُود الله عَزَّوَجَلَّ.**

ولذلك قال أكثر العلماء والعقلاء: "**إن العلمَ بالخالق علمٌ ضروري لا يحتاج إلى نظريِّ**" أي: تأمل أو تفكر أو استدلال.

وإنما تُذَكَّر الفطرة وتُوقَظ من الغفلة إن تنكَّست الفطرة.

مثال: **الموت**، يغفل عنه كثيرٌ من الناس مع أنه لا يشكُّ فيه أحد، ومع ذلك فالله عَزَّوَجَلَّ ذكَّر به.

فمع أن الموتُ حقيقةٌ ثابتةٌ لكن قد لا يستعدُّ له الإنسان؛ بسبب الغفلة والشهوات والأهواء والنِّسيَان، فيحتاج إلى التذكير.

ولهذا قيل: "كفى بالموت واعظًا"، ومن لم يَعِظهُ الموتُ لا يَعظُه شيء، **ومع أنه حقيقة فطرية ضرورية؛ فالله ﷻ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخاطبًا العقلاء:** ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُخاطِب النبي ﷺ ويقول: إنك ميت بهذه التَّوكِيدَات، مع أن الموت ليس محل شك، **لكن بسبب الغفلة نحتاج إلى التذكير.**

ثانيًا: أن الأَلسُن تَنطِق وتَلهَج بِذِكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند الكَوَارِث، والنفوس تلجأ إليه عند دفع المضار.

مثال: المشركون يعرفون الله ﷻ ويلجؤون إليه عند حلول الكَوَارِث.

ولهذا قيل: **"لو قُيِّد لسان مُضطَّرٍ لَنطَق جَنَانه"** أي: نَطَق فؤادُه وقلبُه وأفصَحَت إشَارَاته وأركَانه، وَوَجَد حرارة في قلبه تدفعه إلى بارئِه وتضطرُّه إلى مُنشِئِه وخالقِه.

وهذا الشُّعور لا صُنعَ للبشر فيه ولا كَسبَ لهم فيه لا بتقليد ولا بنظر واستدلال، بل هو لازمٌ من لوازمِ الإنسانيَّة وصفةٌ من صفاتها الذاتيَّة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم:٣٠].

ولهذا قال الإمام الشهرستاني رَحِمَهُ اللهُ: "فما عُدَّت هذه المسألة – توحيد الربوبية– من النظريَّات التي يقوم عليها برهان؛ فإن الفِطَر السَّليمة الإنسانيَّة شهِدَت بضرورةِ فطرتِها وبديهةِ فكرتِها على وجود صانعٍ حكيم عليم قدير".

ثم قال: "**ولهذا لم يرد التَّكليف بمعرفة وجود الصَّانع، وإنما ورد بمعرفةِ التوحيد**"، أي: وجودُ الله عَزَّ وَجَلَّ مسألةٌ موجودةٌ معروفة بالفطرة، لكن أن يُوَحَّد الله في الألوهية فهو المأمُور به؛ لأن المشركين يعلمون أن الله موجود وأن الخالق موجود، لكنهم يعبُدُون غيره، **فجاءت الشريعة بالتوحيد ونفي الشريك**.

ثم عرض الشهرستاني لمسالك المتكلمين في إثبات الصانع، **وأكَّد أنها دون ما شَهِدت الفطرة**؛ فكلُّهَا لا تصل إلى ما شَهِدت به الفطرة الإنسانيَّة؛ من احتياجٍ في ذاتها إلى مُدبِّر هو مُنتهَى الحَاجَات؛ فيَرغَب إليه ولا يُرغَب عنه، ويُستَغنَى به ولا يُستَغنَى عنه.

دلالةُ الفطرةِ على توحيد الأسماء والصفات:

الخَلقُ كلُّهم مَفطُورون على كونِ الخالقِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أجلُّ وأعظمُ وأكبرُ وأعلى وأكملُ من كل شيء، فهذا أمر مستقرٌّ في فِطَرِ الناس، وهو ضروريٌّ في حقِّ من سلِمَت فطرته، وأما تفاصيل هذه الأمور فيُعلَم بالسَّمع أي: بالشريعة التي جاءت بها الرسل.

ومن هنا فإن دلالة الفطرة على الصفات واضحة مبينة، فإن كل مُحدَث لابد له من مُحدِث، وهذا المحدث لابد أن يتَّصفَ بالقدرة والعلم والإرادة والحكمة إلى آخر صفات الله عَزَّوَجَلَّ، **فهذا معروفٌ بالفطرة.**

ففي الفطرة: الإقرار لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه.

وقد قال الفيلسوف ديكارت: "**شعوري بالنقص دليل على وجود ذات كاملة**"، وهو هنا لا يتحدَّثُ عن نفسه، وإنما يتحدَّثُ عن البشرية كلها، فكلُّنا يشعرُ بهذا النَّقص، والشعور بالنقص دليل على وجود ذاتٍ كاملة لا يوجد فيها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، فهذا من أدلة الفطرة.

فالله ﷻ الذي وَهَبَ الحياة ووَهَب العلم والقدرة والإرادة والسَّمع والبصر لمخلوقاته أو بعض مخلوقاته= **لابدَّ أن يكون هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُتَّصِفًا بها على وجه الكَمَالِ المُطلَق**، وبالتالي كان قول نفاة الصفات مُخالفًا لِفِطَر الناس موصوفًا بالشُّذوذ والنُّكران.

دلالةُ الفِطرَةِ على تَوحِيد الأُلُوهيَّة:

لقد ثبت استحالةً أن يكون لهذا العالم صَانِعَان خَالِقَان متكافِئَان في الصفات والأفعال، **وهو ما يسمى بدليل التمانع**، وهو تمانعٌ في الخلق والإيجاد.

فكذلك يستحيل أن يكون لهذا العالم إلهَان مَعبُودَان؛ يُقصَدَان بالدُّعَاء والذلّ والمحبة والتَّعبُّد والإخلاص= فهذا لا يمكن عقلًا وفطرةً؛ فذاك تمانعٌ في الخلق والإيجاد، وهذا تمانعٌ في العبادة والقصد.

الخلاصة:

القلوبُ مفطُورةٌ على الإقرار بالله ﷻ تصديقًا به وتديُّنًا له، لكن قد يعرض لها ما يفسدها ويخرجها عما فُطِرت إليه بسبب التأثيرات الخارجية، أما إذا تُرِكت على حالتها الطبيعية فهي تؤمن بالله ﷻ خالقًا وربًّا ومعبودًا.

الدَّرْسُ العَاشِر

قَوَاعِدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَال العَقدِيّ

(١)

وهذه قواعدُ قرَّرها أهل السُّنَّة والجماعة للتعامل مع المِصَادِر السابقة، وهي التي تميز أهل السُّنَّة عن غيرهم، وهي كثيرةٌ، إلا أننا سنقتصر على عدد منها، وهي:

القاعدة الأولى: الإيمان بجميع نصوص الكِتَاب والسُّنَّة:

فعلى المؤمن أن يؤمن بجميع نصوص الكِتَاب والسُّنَّة، ويعلم أن ما أخبر به النبي ﷺ عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه يجب الإيمان به.

ولا يتوقَّف هذا الإيمانُ والتصديقُ والقبولُ والإذعانُ على معرفة معنى النص؛ فسواءً عرفنا معنى النص من آيةٍ وحديثٍ أو لم نعرف= علينا الإيمان والتصديق؛ لأنه الصادق المصدوق.

فَوَجَب على كل مؤمن= **الإيمان بما جاء في الكِتَاب والسُّنَّة وإن لم يفهم معناه**، وكذلك ما ثبت باتفاق الأمة وأَئِمَّتها،

أي: بالإجمَاع، مع أن عامة مسائل هذا الباب -باب مسائل الاعتِقَاد- منصوصٌ عليه في الكِتَاب والسُّنَّة، ومتفق عليه بين سلف الأمة.

فهذه هي رُوحُ القاعدة أو صورة القاعدة الأولى، فالسلف آمنوا بأن الله ﷻ هو ربُّهم وخالقهم ومليكُهم، وأنه حكيم عليم قدير، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه أَرسَل الرسل لهدايتهم وأنزل معهم الكِتَابَ والميزانَ.

فما أَخبَر به النبي ﷺ عن الله=

- فالله أَخبَر به، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنما يُخبِر بعلمه.
- ويمتنع أن يُخبِرَ بنقيض علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.
- وما أمر به الرسول ﷺ فهو من حُكمِ الله والله أمر به، وهو العليم الحكيم.

الدليل: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦]، وهذا يقتضي أن ما بَلَّغَهُ الرسولُ ﷺ حقٌّ من عند الله، وهو يُوافِق علمَ الله ومُرادَ الله.

وبالتالي الواجب على كل أحدٍ أن يُقابِل:

- ما يُخبِر به الرسول ﷺ بالتصديق.
- وما يأمر به النبي ﷺ بالطاعة.

فالأخبار تُقَابَل بالتصديق، والأوامر والنواهي تُقَابَل بالطاعة والانقياد.

❖ أنواع الإيمان بالنصوص:

فنعلم أن الإيمان بالنصوص -نصوص الكِتَاب والسُّنَّة- يكون على ضَربَيْن:

١- الإيمان المجمل، **وهذا من فروض الأعيان**، فيجب على كل أحد من الناس، فمن آمن بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا= لا بد أن يؤمن بجميع ما بلَّغه عن الله ورسوله ﷺ سواء ظهرت له المعاني وَوَضَحَت له المدلولات أم لا، فهذا حظُّ جميع الناس، حتى الذين لا يفهمون العربية عليهم أن يؤمنوا بأن كل ما جاء عن الله ورسوله ﷺ حقٌّ وصدق وعدل؛ ولهذا كان بعض الصَّحَابَة يمر بآية ولا يدرك معناها.

مثال: ما وقع لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الأبّ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١].

فقال: ما الأبّ؟ ثم قال: وما يضرك ألَّا تعلم ذلك؟ فهو يعلم أن الأبّ نوعٌ من النبات لكنه يريد أن يعرف:

- أيُّ نوع من النبات؟
- ما اسمه؟
- ما صفته؟
- ما منافعه؟

فتفاصيل هذه لم تُذكَر في القرآن الكريم، وجعل ذلك من التكلُّف وانتهى عن ذلك.

وورد عن الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يقول: "أيُّ سماء تُظِلُّني وأيُّ أرض تُقِلُّني وأقول في كتاب الله ما لا علم لي به"، أو نحو هذه العبارة.

وهذا لا يعني أن في النصوص ما لا يُدرَك معناه بحال، بل معاني النصوص مفهومة من لغة التخاطب، لكن قد يكون في الشخصِ بعضُ عواملِ القُصُورِ ما هو مَدعَاةٌ إلى عدم فهم النصوص ووضوح الخطاب عنده.

فالواجب على المسلم: الإيمان بالنصِّ بعد معرفة صحةِ مَخرَجِه وأنه قاله الله عَزَّ وَجَلَّ وقاله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعد ذلك يؤمن به إيمانًا

عامًّا مجملًا، من غير أن يشترط فهم المعنى أو إدراك الحقيقة، أو يعرف سلامتَه عن المعَارِضِ العقليّ.

أمثلة على من يشترط ولا يؤمن إيمانًا مجملًا:

- منهم **الصوفية** فيُسمَّى المعَارِض العقليّ عندهم بالذوق والكشف، **فيَنظُرُون:** هل هو موافقٌ للذوق والكشف أم لا؟
- ومنهم **الشيعة الإماميَّة**، **فيَنظُرُون:** هل هذه الآية وهذا الحديث موافقٌ لقول المعصومين من الأئمة أم لا؟

فكل هذا يقدح في الإيمان، فينبغي أن نؤمن بجميع نصوص الكِتَاب والسُّنَّة إيمانًا عامًّا غير مشروط، لا بعقلٍ ولا بذوقٍ ولا بقولِ معصومٍ، فهذا هو الإيمان المجمل.

٢- الإيمان المفصَّل، وهذا من الفروض الكِفَائيَّة، فهو خاصٌّ بكلِّ من قام عنده الدليل وبان له مدلولٌ وظَهَر له المعنى، فإذا حَصَل ذلك عنده صار الإيمان في حقِّه فرضًا متعيِّنًا، وإلا فالأصل أنه كِفَائيٌّ.

قال شارحُ الطحاوية رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التَّفصيل هو فرضٌ على الكفاية، **لكن من قَدِرَ عليه وجب عليه تحصيله**؛ طلبًا لحماية الدين وكفاية المسلمين

بتعليمهم وتفهيمهم إياه، وهو بحرٌ تتَفَاوتُ فيه هِممُ الطَّالبين، وتَتَطاول عنده أعناقُ الرَّاغبين، وبقدر المعرفةِ به تكمُنُ المعرفةُ بالله وبدينه".

كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١]؛ **فأهل الهدى ودين الحق هم: أصحاب العلم النافع والعمل الصالح؛** الذين صَدَّقُوا الرسول ﷺ في جميع ما أخبر به، واعتقدوا أنه حق على حقيقته، مطابقٌ للأمر في نفسه.

ولم يعترضوا على ذلك في الشُّبُهات والظُّنون، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أحوال المعاندين: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣]، **فكل من عارض الكِتَاب والسُّنَّة ليس له إلا أن يكون من أَتْبَاع الظن أو من أَتْبَاع الأهواء**، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، فتركوا الهُدَى الواضح البيِّن واليقين، واتبعوا الظُّنون والأهواء؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق:

☒ دون أن نعارضه بِخَيَالٍ باطل نُسمِّيه معقولًا.

☒ أو نحمِّله شبهةً أو شكًّا.

☒ أو نقدم عليه آراء الرجال وزُبَالَة الأذهان.

إذن:

✓ نُوحِّده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتَّحكيم والتَّسليم والانقياد والإذعان، وهذا فيما يتعلق بتوحيد الله عَزَّ وَجَلَّ.

✓ ونُوحِّده كذلك بالعبادة والخضوع والذلّ والإنابة والتوكُّل.

فهُمَا توحيدَان لا نجاة للعبد إلا بهما؛ كما يقول شارح الطحاوية رَحِمَهُ اللَّهُ: "**لا نجاةَ للعبدِ من عذاب الله إلا بهما:**

١- توحيد المرسِل وهو الله.

٢- وتوحيد متابعة الرسول ﷺ.

فهذه هي القاعدة: الإيمان والتصديق والاتباع لكل ما بَلَغنا عن الله ورسوله ﷺ.

الدليل: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول في شأن المنافقين: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا

مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥]، فهذا قَسَمٌ من الله ﷻ بذاته العَلِيَّة الكريمة، وهذا يدل على خطورة الأمر وعِظَمِه؛ أنهم لا يؤمنون، فنفى عنهم الإيمان.

واشترط:

- ✓ أن يحكم النبي ﷺ في كل ما شَجَر بينهم وتنازعوا فيه.
- ✓ وهذا التحكيم لابد أن يكون تحكيمًا ظاهريًّا وباطنيًّا، من غير أن يجدوا في أمر الرسول ﷺ حرجًا.
- ✓ وأن يُسَلِّموا بذلك تسليمًا ظاهرًا وباطنًا، **فحتى التسليم الظاهر لا يكفي حتى يكون تسليمًا من الظاهر ومن الباطن.**

دليل ثاني: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هؤلاء الذين يُفرِّقُون بين آيات الله؛ حيث يؤمنون بما يرونه مصلحةً لهم ويكفُرون بغيره: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]، فهذا مع أنه خطاب لليهود إلا أن المسلمين مُطالبون بمخالفة طريقة اليهود، وتجنُّب مسالكهم.

دليل ثالث: ورد عن النبي ﷺ أنه عندما تنازع بعضُ أصحابِه في بعضِ آيات القرآن الكريم، فذكروا آيةً من القرآن فتَمَارَوا فيها وتجادلوا حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مُغضَبًا قد احْمَرَّ وجهُه يَرميهِم بالتراب ويقول: **"مهلًا يا قوم! بهذا أُهلِكت الأمم من قبلكم؛ باختلافهم على أنبيائهم، وضَربِهم الكتب بعضَهَا ببعضٍ، إن القرآن لم يَنزِل يُكَذِّبُ بعضُه بعضًا، بل يُصَدِّق بعضُه بعضًا؛ فما عرفتُم منه فاعملوا به، وما جَهِلتم منه فرُدُّوه إلى عَالِمه"**[١].

وهذا هو الواجب على المسلم: إذا فَهِم شيئًا عمل به، وإذا لم يفهمه يَرُدُّه إلى عالِمه، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا الحديث ونحوُه مما يَنهَى فيه عن معارضة الحقِّ، أو حقٍّ بحقٍّ؛ فإن ذلك يقتضي التكذيب بأحد الحقَّيْن أو الاشتباه أو الحيرة.

والواجب التصديق بهذا الحقِّ وهذا الحقِّ؛ فعلى الإنسان أن يُصدِّقَ بالحقِّ الذي يقوله هو أو يقوله غيره، ليس له أن يُؤمن بمعنَى

---

[١] أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧٦٨)، وابن ماجه في سننه (٨٥)، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه (٦٢/١): "صحيح".

آيةٍ استدلّ بها، ويرد معنى آيةٍ استدلّ بها مُنَاظِرُه، ولا أن يقبل الحق من طائفةٍ ويَرُدَّه من طائفةٍ أخرى؛ **لأن هذه النصوص كلها خَرَجت من مشكاةٍ واحدةٍ**".

والنبي ﷺ قال: "**لا أُلفِيَنَّ أحدكم متكِئًا على أريكته يأتيه الأمر مما أَمَرتُ به أو نَهَيتُ عنه، فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه**"[1]، أي: لا يريد أن يَقبَل السُّنَّة وأحاديث النبي ﷺ.

فهذا الحديث فيه إنكارٌ شديدٌ على من آمن وصدَّق بالكِتَاب دون السُّنَّة؛ لأنه فَرَّق بين الله ورسُلِه، وآمن ببعض الكِتَاب وكفر ببعض، وعَقْدُ الإيمان يقتضي التصديق بجميع ما بَلَغه وأُخبِر به عن النبي ﷺ من الآيات والحكمة.

تطبيقات عملية للقاعدة الأولى:

فمن التطبيقات العملية لهذه القاعدة ما يلي:

المثال الأول: ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: "**بينما رجلٌ يسُوقُ بقرةً له قد حمَلَ عليها**

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٠٥)، والترمذي في سننه (٢٦٦٣)، وابن ماجه في سننه (١٣)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٢٧/٦): "صحيح".

متاعه، التفتَتْ إليه البقرة فقالت: إني لم أُخلَق لهذا"، أي: هذا ليس من طبيعتي ولا من فطرتي أن تحمل عَلَيَّ أغراضك، ولكني إنما خُلِقتُ للحرث.

فقال الناس متعجِّبين: "سبحان الله بقرةٌ تتكلَّم!" فقال رسول الله ﷺ: **"فإني أؤمن بهذا وأبو بكر وعمر"**(١)، وليس في المجلس أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

فالرسول ﷺ أخبر عن حال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في التصديق، وإن كان الخبر مما يتعجَّبُ منه الناس ومما يندهشُون منه، **فما دام النبي ﷺ قال الخبر=**

- ✔ فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى.
- ✔ ولا يقول من نفسه.
- ✔ بل لابد أن يكون خبرُهُ موافقًا لمراد الله عز وجل.

الشاهد: أنه ﷺ أَخبَرَ عن حال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مع غيابهما عن المجلس؛ لأنه يعرف حالة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما التصديقيَّة.

وهذا يتجَلَّى في حادثة الإسراء(٢)، لما أُسرِي بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس وجاء الناس إلى أبي بكر رضي الله عنه وقالوا له: "أَوَمَا سمعتَ ما

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٤٨٣)، ومسلم (٢٨٣٣).

يقول صاحبُك؟ يقول أنه أُسرِيَ به إلى بيت المقدس"؛ إذ بيننا وبين بيت المقدس مفاوِز؛ فهي كانت تُسمَّى: رحلة الشتاء والصيف؛ شهرٌ للذهاب وشهرٌ للإياب.

فما كان من أبي بكر ﵁ إلا أن قال: "أَوَقد قال؟"، فهو يريد أن يتأكَّد من صحة الخبر، وهل صَدَر من النبي ﷺ؟

فلما قالوا له: نعم، قال: "**فإن كان قال فقد صَدَق**"(١).

ولهذا سُمِّي الصِّدِّيق، ولم يذهب ليتأكد، وإنما عَلَّق صحة الخبر بصحة نسبتِه، فإذا صدر من النبي ﷺ فالنبي ﷺ صادقٌ فيما يُخبِر به، فهو ﵁ إنما عَلَّق التصديق بالخبر على صحة نسبته، فإذا صَحَّت النسبة صَحَّ الخبر، وكان مطابقًا للأمر في نفسه.

وهذا هو موقف المؤمن من أخبار النبي ﷺ، والذي ينبغي أن يكون عليه.

المثال الثاني: سأل رجلٌ الإمامَ الزُّهري قال: (يا أبا بكر، قَولُ النبي ﷺ: "**ليس منا من شَقَّ الجُيُوب**"(٢)= ما معناه؟)

(=) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٢).

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٧٠).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).

فقال الزُّهري: "**مِنَ اللهِ العلمُ، وعلى رسوله البلاغُ، وعلينا التَّسليم**" أي: التَّسليم للنصوص وإن لم يُدرَك حقيقتها ولم يُدرَك كيفيَّتُها.

المثال الثالث: قولُ الإمام مالك رحمه الله لما سُئِل عن الاستواء وقيل له: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] **كيف استوَى؟** يسألون عن الكَيفيَّة لا عن معنى الاستواء.

فقال قولته المشهورة: "**الاستواء غير مجهولٍ**، -يعني: غير مجهول المعنى- **والكَيفُ غير معقولٍ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعة**".

فجعل الإمام مالكٌ رحمه الله هذا السؤال بدعةً؛ **لأنه يؤدي إلى التكذيب ببعض النصوص**، والواجب هو الإيمان بها والتسليم لها، وإن لم يُدرَك حقيقةُ ما دلَّت عليه من العلم بالكَيفيَّة، فنحن لسنا مُطالَبين بأن نعلم كَيفيَّةَ صفات الله عز وجل، لكننا مُطالَبون بالإيمان بمعاني هذه النصوص التي خاطبنا الله عز وجل بها.

ولهذا يُقال: **عدمُ العلمِ** -أي: بحقائق الأمور- **لا ينفي العلمَ بوجودها وثبوتها في نفس الأمر**. فما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم هو حقٌّ ثابتٌ في نفس الأمر، سواءً علمنا المعنى أو لم نعلم، وسواءً

علمنا الكَيفيَّة أو لم نعلم، **وإنما المطلوب التَّأكُّد من صحة نسبة الخبر إلى النبي ﷺ.**

وإذا عَلِم الإنسانُ أن اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هو أصدقُ قيلًا وأحسن حديثًا، وأن رسولَه ﷺ هو رسولُه الثابت بالنَّقل والعقل وبالبراهين اليَقينيَّة، ثم وَجَدَ هذا الإنسانُ في عقلِهِ ما يُنازِعه في خبر الرسول ﷺ= **كان عقلُه يُوجب عليه أن يُسلِّم موارِد النزاع إلى من هو أعلم منه، وهو الرسول ﷺ.**

مثال: العاميُّ يُصدِّق أهلَ الاختصاص في جميع العلوم الطبِّية والهندسيَّة وما يتعلق بالفلاحة والزراعة ونحوها، **فيُصدِّق أخبارهم وكلُّ ما يقولونه دون اعتراض؛ لأنه غير متخصِّص**، وإن لم تتَّضِح له الوِجهَة ولا الكَيفيَّة، ولم يتِّضح له المعنى، ولكنه يُسلِّم له.

فالمريض يجلس عند الطبيب ويستمع ويأخذ منه الوَصفَة الطبِّية ويتناولُ الدواء من غير اعتراض ولا مناقشة؛ **لأنه ليس من أهل الاختصاص.**

فالانقياد لخبر النبي ﷺ أولى، مع أن الطبيب قد يُخطئ كما يَثبُتُ ذلك، ويتكرَّر في المستشفيات ما يُسمَّى بالأخطاء الطبية، وهذه الأخطاء أحيانًا قد تُؤدِّي إلى الهلَكة وإلى الموت، ومع ذلك

يذهب الناس إلى الأطباء ويَثِقُون فيهم، فالوثوقُ في خبر النبي ﷺ وفي خبر الله عَزَّ وَجَلَّ من باب أَوْلَى.

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ الهداية والتوفيق.

الدَّرْسُ الحَادِي عَشَر

قَوَاعَدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَال العَقدِيّ (٢)

❖ فوائد الالتزام بالقاعدة الأولى (السابقة):

من فوائد الالتزام بهذه القاعدة ما يلي:

أولًا: بُطلان كونِ العقل وحده يَستقلّ في تحصيل المعرفة الدِّينيَّة؛ فنحن في حاجةٍ إلى النصوص الشَّرعيَّة خاصةً فيما يتعلق بالأمور الغيبيَّة التي لا يمكن أن تُدرَكَ بالعقل، دون أن نشترط موافقةَ العقلِ في تحصيلِ هذه المعرفة الدِّينيَّة؛ بحيث لا نؤمن بالنص حتى يوافق العقل فيما دل عليه.

ومن أمثلة ذلك:

١. الكشف والذوق عند الصوفية.

٢. الموافقة لقول المعصوم عند الشيعة الإمامية.

ثانيًا: بيانُ درجةِ الرَّاسخين في العلم، وهي على النحو الآتي:

✓ **الإيمان بجميع ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** من الكِتَاب والحكمة إيمانًا عامًّا مجملًا.

✓ **وإذا استَبَان لهم معنى آية أو حديث**= لم يَسَعْهم إلا الانقياد والإذعان له.

✓ **وإذا اشتَبَهَت عليهم بعض النصوص**= فوَّضوا العلم بها إلى قائله وهو الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث قال الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧].

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولولا صحة الإيمان منهم لم يَستحقُّوا الثَّناء عليهم لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]".

ثالثًا: تحقيقُ النَّجاة من مذاهب المبتدعة المخالفين لنصوص الكِتَاب والسُّنَّة؛ حيث رَدَّت كلُّ طائفة منهم من النصوص ما زعموا أنه يُخالِف ما عندهم من القواعد، واعترضوا على كلِّ ما استدلَّ به خصومهم، وذلك بالشُّبه والخيالات الباطلة.

والمؤمن الحق يعتقد:

- ✔ أن هذه النصوص إنما خرجت من مشكاةٍ واحدةٍ، كتابًا متشابهًا يُصدِّق بعضه بعضًا.
- ✔ بل بينها من التَّوافقِ والتَّعاضد ما لم يتصوَّرهُ أهلُ الابتداع.
- ✔ وأهلُ الابتداع تَحكَّموا فيها بمجرَّد الهوى والظن، فاعتقدوا فيها التَّعَارُض والاضطراب فقبِلُوا ما وافق بدعتهم، وردُّوا غيره بأنواع التَّحريفات والتَّضعيفات.

أمثلة على ذلك: وهي كثيرة ومنه:

١. **القدرية** النُّفَاة للقدر، تأوَّلوا النصوص التي يَستدلُّ بها خصومهم من الجبرية.

٢. **ونفاة الصفات** يتأولون النصوص التي يَستدلُّ بها خصومهم من المثبتة.

رابعًا: سَدُّ باب التأويل البدعي، الذي هو في الحقيقة= تحريفٌ؛ لأن المتأوِّل لم يجترِئ على النصِّ بالتحريف إلا بعد أن انقَدَح عنده بطلانُ ما دلَّ عليه هذا النصُّ من المعاني، فذهب إلى تحريفه وإخرَاجِه عما وُضِع له.

فكان فيه شَبَهٌ ممن يلي:

الأول: من قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:١٦١]، فلما قيل لهم: قولوا حِطَّة يعني: مغفرة، قالوا: حِنطَة، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ﴾ [الأعراف:١٦٢].

الثاني: من قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، أي: هؤلاء الذين حرَّفُوا كلام الله من اليهود وغيرهم إنما حرَّفوه بعدمَا عَقَلُوه وهم يعلمون بذلك.

خامسًا: **دفعُ توهُّم التَّعَارُض بين النصوص واختلافها،** فالنصوص يُصدِّق بعضُها بعضًا، وهي -فقط- تحتاج إلى التأمل والتدبر، وحينئذ لن يعارضَ بعضُها بعضًا أبدًا.

الدليل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

سادسًا: **دفعُ توهُّم التَّعَارُض بين الوحي والعقل؛** كما وقع لأهل البدع.

أمثلة:

- أنكروا نصوص البرزخ والصراط والميزان.
- وأنكروا نصوص رؤية الله ﷻ في الآخرة.
- وأنكروا ما وَرَد في حديث الذباب.
- وأنكروا حديث شرب العسل وغير ذلك.

وكل ذلك بدعوى عدم تصوُّرِ العقل له؛ فجعلوا العقل حاكمًا على النصوص.

أما عند أهل الحق والإيمان فالشرع هو الحاكم.

الدليل: قال ﷺ: **"لا يؤمن أحدُكُم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به"**[١].

---

[١] أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والبيهقي في الكبرى (٢١٣١٨)، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٣٥٥)، قال النووي في الأربعين: "هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح".

القاعدة الثانية: اشتمالُ الكِتَاب والسُّنَّة على جميع مسائل العقيدة:

وهذه قاعدة عظيمة، تُبيِّن مَنهَج أهل السُّنَّة في التعامل مع نصوص الكِتَاب والسُّنَّة.

وهذه القاعدة تقول: أن الكِتَاب والسُّنَّة يشتملان على أصول الدين، أي: على جميع مسائل ودلائل العقيدة؛ فالعقيدة:

- إما مسائل.
- وإما أدلة على هذه المسائل.

فكل ما يحتاجه الناس من:

١. معرفةِ مَا يتعلق بالله ﷻ وبأسمائه وصفاته وأفعاله.

٢. ومعرفةِ ما يتعلق بالرسالات.

٣. ومعرفةِ ما يتعلق باليوم الآخر ونحوها= **لا يوجد إلا في الكِتَاب والسُّنَّة.**

وهذا يعني: **أن مصدرنا الوحيد لمعرفة ذلك هو الكِتَاب والسُّنَّة لا غير ذلك**، وهذا يُسمَّى عند كثير من الناس: أصول الدين.

مسألة تقسيم الدين إلى أصول وفروع:

فكثير من الناس جعلوا الدين أصولًا وفروعًا، مع أن هذا التقسيم فيه نظر.

لكن يمكن التجاوز عن ذلك، وإلا فالكِتَاب والسُّنَّة اشتملَا على:

- **أصول الدين** التي تستحقُّ هذا الاسم.
- **براهين –أي: أدلة– هذه الأصول** سواءً كانت أدلة سمعيَّة أو عقليَّة، فهي موجودةٌ في الكِتَاب والسُّنَّة، **فحتى الأدلة العقليَّة موجودةٌ في الكِتَاب والسُّنَّة.**

وما جاء به الرسول ﷺ كاملٌ كافٍ شافٍ يدخل فيه كل حقٍّ؛ كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن رسول الله ﷺ بَيَّن جميع الدين؛ أصولَه وفروعَه، باطنَه وظاهرَه، علمَه وعملَه؛ **فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان**، وكل من كان أعظمُ اعتصامًا بهذا الأصل كان أَوْلى بالحق علمًا وعملًا".

أحوال تعلُّق العلوم بالسَّمع والعقل:

وهو يكون على ثلاثة أحوال، فللعلوم عمومًا علاقة بالسَّمع أي: الكِتَاب والسُّنَّة، وهي كالتالي:

١- علومٌ تُعلم بالسَّمع فقط، فلا مجال للعقل فيها وهو: ما يُعلَم بمجرد إخباره، أي هي: أمور خبريَّة لا تُعرفُ إلا بخبر الكِتَاب والسُّنَّة، **وهذه الأمور الغيبيَّة.**

مثال: **تفاصيل البعث والحساب والجزاء**؛ لأن العقل لا يهتدي إليها بحال، فلا تُعلَم إلا بالسَّمع، وهناك أمور تُعلم بالسَّمع وبالعقل، أما هذه فلا تُعلم إلا بالسَّمع.

مثال آخر: **ما يحدث في القبر من أحوال وأهوال، وما يحدث يوم القيامة من أحوال وأهوال.**

فطريقُ معرفتِها: القرآن والسُّنَّة، ولا مجال للعقل هنا، فليس له إلا أن يَتلقَّى وأن يُصدِّق وأن يُقِر؛ لأنه قد أقرَّ بأن الله هو الواحد الأحد، وأن الرسول ﷺ صادق فيما يخبر عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالقلوب تُقرُّ بـ:

- صدق الرسول ﷺ.
- وأنه ﷺ أعلم الخلق بالحق.

- وأنه أنصحُهم إليهم وأشدُّهم رغبة في هدايتهم وتعليمهم.

٢- **علومٌ تُعلَم بطريق العقل فقط**، فهو عكس الأول ولا مجال للسمع فيها؛ لأنه لم يتحدث عنها.

وهذه عادة ما تكون في العلوم المفضُولَة؛ كالكلام في:

- الطب.
- والحساب.
- والحِرَف.
- والصناعات.

فهذه الأمور يتعلَّمُها الناس بعقولهم.

٣- **علومٌ تُعلَم بالعقل والسَّمع معًا**، أي: اشتَرَكَ في العلم بها العقل مع الشرع؛ فالشرع قد هدى وأرشد إلى أدلتها العقليَّة فتكون شرعية وعقليَّة في الوقت نفسه؛ لأن العقل أرشد إلى أدلتها العقليَّة.

إذًا: أصول الدين سواء كانت مسائل أي: قضايا وأحكام، أو دلائل على تلك المسائل، كلها قد جاءت في الكِتَاب والسُّنَّة بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر.

كفاية الوحي في العلوم الإلهيَّة والعقديَّة:

بل أمور العقائد التي هي من أصول الدين، يقتضي بيان النبي ﷺ لها، بل هذا من أعظم ما بلَّغه الرسول ﷺ البلاغ المبين، **فأمور العقائد التي تُسمَّى أصول الدين أعظم وأهم وأخطر من الأحكام العملية من العبادات والصلاة والصيام وغيرها من الأحكام،** فبيَّنها النبي ﷺ وبيَّنها القرآن الكريم أعظم بيان.

قال شارح الطحاوية رحمه الله: "ومن المحال ألّا يحصُلَ الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ﷺ ويحصُلَ من كلام هؤلاء المتحيِّلين -أي: الذين خالفوا الكِتَاب والسُّنَّة-، **بل الواجب أن يُجعَل ما قاله الله ورسوله ﷺ هو الأصل** ويُتَدَبَّر معناه ويُعقَل ويُعرَف برهانُه ودليلُه العقلي والخبري السَّمعي، وتعرف دلالته على هذا وهذا.

ثم تُجعل أقوالُ الناس التي توافقه وتخالفه متشابهةً مجملةً تحتمل وتحتمل، **ويقال لأصحابها عندئذٍ**: هذه الألفاظ تحتمل كذا وتحتمل كذا:

١. فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول ﷺ قُبل.

٢. وإن أرادوا بها معاني تخالف خبر النبي ﷺ رُدَّ".

فالمقصود:

- ✓ **بيان أن العلم هو: ما قام عليه الدليل**، فالعلم الذي يستحقُّ أن يسمَّى علمًا هو: ما قام عليه الدليل.
- ✓ **والنافع منه هو: ما جاء به الرسول ﷺ**، أي: ما جاءت به الشريعة؛ لأن هناك علومٌ لم تأتِ بها الشريعة، لكنها علوم صحيحة وقد تكون نافعة، لكن أنفعها ما جاء به النبي ﷺ؛ لأنه هو الذي يُصلِح لنا أمر الدنيا والآخرة.

فالعلوم الإلهيَّة والمعارف الدِّينيَّة نأخذها عن النبي ﷺ لما يلي:

- ✓ لأنه هو أعلمُ الخلق بها.
- ✓ وأرغبُهم في تعريف الخلق بها.
- ✓ وأقدرُهم على بيانها وتعريفها.

فهو فوق كلِّ أحد في العلم والبيان والقدرة والإرادة؛ فالنبي ﷺ فوق كل أحد من الناس علمًا وبيانًا وقدرة وإرادة في محبة الخير للناس، وأحرصهم وأرغبهم في تعليمهم وتخليصهم من غضب الله ﷻ.

أوجه بيان النبي ﷺ لمسائل العقائد:

وبيان النبي ﷺ لمسائل العقائد يكون على وجهين:

الوجه الأول: تارة يُبيِّن الأدلة العقليَّة الدالة على هذه المسائل -مسائل العقيدة-، والقرآن مملُوءٌ بالأدلة العقليَّة والبراهين اليَقينيَّة على هذه المعارف والمطالب الدِّينيَّة، خاصة ما يتعلق بأمور العقائد.

الوجه الثاني: أن يُخبِر بها خبرًا مجرَّدًا؛ معتمدًا في ذلك على ما أقامه من الآيات والبيِّنات والدلائل اليَقينيَّة على أنه رسول الله المبلِّغ عن الله، وأنه لا يقول إلا الحق.

أمثلة:

الأول: أحوال البرزخ.

الثاني: مسائل الغيب.

الثالث: لما تحدَّث النبي ﷺ عن البقرةِ التي تُكلِّم صاحبَها، وتقول له: إني لم أُخلق لهذا، وإنما خُلِقت للحَرْثِ، فقال الصَّحَابَة الذين كانوا مع النبي ﷺ: بقرةٌ تَتَكلَّم! وإنما قالوا ذلك تعجُّبًا

واستغرابًا، فقال النبي ﷺ: "فإني أُؤمِنُ بهذا وأبو بكر وعمر"[١]، وليس في المجلس أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما.

أدلة كفاية الوحي في أمور الدين والدنيا:

فالواجب أن ما أخبر به النبي ﷺ نُقَابِلُه بالتَّصديق واليقين؛ فالكِتَاب والسُّنَّة يشتملان على ما يحتاجه الناس في دينهم ودنياهم مما يتعلق بمصالحهم الدنيويَّة التي يَسعَدُون فيها ويَسعَدُون في الآخرة.

الدليل: قال الله عز وجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨].

دليل ثاني: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:٨٩].

ففي الآية الأولى: من شيء، وفي الآية الثانية: لكل شيء.

دليل ثالث: وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ **كُلِّ شَىْءٍ** وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

---

[١] متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٤٨٣)، ومسلم (٢٨٣٣).

ونحن نعرف أن هناك وجهان لتفسير آية: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[الأنعام:٣٨]:

الوجه الأول: قيل: هو اللوح المحفوظ؛ فإن الله ﷻ أثبت فيه ما يقع من الحوادث.

الوجه الثاني: وقيل: القرآن أي: ما ترَكْنا شيئًا مما يحتاجه الناس في أمور دينهم إلا وقد دلَّلنا عليه في القران:

- إما دلالةً مُبِيْنَةً ومبَيَّنَةً ومشروحة.
- وإما مجملةً يُتلقَّى بيانُها من النبي ﷺ أو من الإِجمَاع أو من القياس.

والله ﷻ أمرنا أن نسأل أهل الذكر إن كانت تَغِيب عنا بعض الأشياء، فصَدَق خبرُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأنه ما فرَّط في الكِتَاب من شيء إلا وقد ذكره إما:

- **تفصيلًا.**
- **أو تأصيلًا**؛ بحيث يُحيل على:
  - النبي ﷺ.
  - أو يحيل على أهل الذكر.

وأهل الذكر هم أهل الشأن في كل علم من العلوم، وشأن من الشؤون.

والله ﷻ وصف كتابه القرآن بأنه:

- الحق.
- وأن الهداية معقودة على اتِّباع هذا الكِتَاب.
- وأن النجاة وأن الهداية معقودة على الالتزام بما ورد فيه تصديقًا وتحكيمًا.

الأدلة على ذلك:

- قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].
- وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].
- وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة].
- وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٥].

ولا شك أن تركَ العباد من غير هداية وإرشاد ينافي حكمة الله ﷻ في محبته لعباده.

كمال الدين وكفاية الوحي:

فالله ﷻ امتنَّ على عباده باكتمال الدين وإتمام النعمة، وكلُّ ما يحتاجونه موجود في هذا الدين.

والأدلة على ذلك:

الدليل الأول: قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣].

ولهذا قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"فكل من زعم أنه بقي في الدين شيء لم يُكمَل فقد كذَّب بقوله:** ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾[المائدة:٣]".

فالواجب على كل مؤمن أن يَرضَى بما رَضِيَ الله له وأن يَقنَعَ به، فمن التمس الهدى في غير دين الله فقد رَدَّ على الله أَمرَه وخبره، وقد قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

الدليل الثاني: قول النبي ﷺ: **"وايمُ الله لقد تركتُكُم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء"**، وفي رواية: **"لا يزيغُ عنها إلا هالك"**[١].

- قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "صدق والله رسول الله ﷺ، تركنا والله على مثل البيضاء -يعني: بيضاء نقيَّة- ليلها ونهارها سواء".
- وقال أبو ذر رضي الله عنه: "لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرِّك طائرٌ جناحيه في السماء إلا أَذْكَرَنَا منه علما"، فحتى الطيور التي تطير في السماء لم يترك رسولُ الله ﷺ الإخبار عن أحوالها!

فكيف بما يحتاجه المرء في دينه ودنياه؛ **فهذا يدل بطريق الأَوْلَى على أن أصول الدين التي هي العقيدة والإيمان هي أكثر وأوفر وأوثق في هذا الدين.**

- وكذلك ما قاله سلمان الفارسي رضي الله عنه لما قيل له: قد علَّمَكُم نبيُّكم كلَّ شيءٍ حتى الخراءة! فقال: "أجل علمنا حتى

---

[١] أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٠٧)، والترمذي في كتاب العلم (٢٦٧٦)، وابن ماجه في سننه (٤٣)، وأحمد في مسنده (١٧١٤٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٣٢): "إسناده حسن"

الخراءة" أي: الدخول إلى الخلاء، مع أن هذا أمر فطريٌّ لا يحتاج إلى تعليم، وإنما هذه دقَّةُ هذا الدين.

كمال الدين حتى في باب الآداب:

فمن دقة الإسلام أنه جعل لكل شيء آدابًا حتى في الأمور الفطرية.

فمثلا هناك:

- آداب الطعام.
- وآداب الشراب.
- وآداب النوم.
- وآداب اللباس.
- وآداب الدخول إلى الخلاء.
- وآداب الكلام.

فكلُّ شيء جعل له آدابًا وأخلاقِيَّات، فإذا كان الإسلام قد عُنِيَ بهذه الأمور الفطرية التي لا تحتاج إلى تعليم، بل يعرفها الإنسان بفطرته وجبِلَّته، ومع ذلك دخل فيها الدين وجعل لها آدابًا وأخلاقيات، فأصول الدين من العقائد والإيمان من باب أَوْلى، **فما دام أن النبي ﷺ علَّم أصحابه رضي الله عنهم كلَّ شيء، فبالتالي مُحالٌ أن**

يترُك تعليمهم فيما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ربِّ العالمين؛ الذي معرفتُه هي غايةُ المعارف وعبادتُه أشرفُ المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، **بل هذا هو خلاصة الدعوة النبويَّة وزبدة الرسالة الإلهيَّة،** فكيف يَتوَّهم من في قلبه أدنى مُسْكةٍ من إيمانٍ وحكمةٍ ألَّا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول ﷺ على غاية التمام.

موقفُ من يدَّعي عدم كفاية نصوص الكِتَاب والسُّنَّة:

إما أن يقولوا على احتمالين:

الاحتمال الأول: أن الرسول ﷺ تكلم في أصول الدين أو يقولوا: لم يتكلم.

ولا شك أن الباطل هو الثاني وهو: أنه لم يتكلم، وهذا لا يقول به مسلم، ولا يقول به عاقل.

وقد يقولون: أنه تَكَلَّم بما هو الحق، أو لم يتكلم بالحق، وهذا الثاني لا يقول به مسلم، أن الرسول ﷺ تكلم لكن بالباطل!

الاحتمال الآخر أن يقول: أنه تكلَّم لكن تكلَّم بكلام مبهمٍ مجملٍ غير واضح؛ وهذا أيضا باطل وغير صحيح؛ لما يلي:

- لأن القرون الأولى من الصَّحَابَة والتابعين وتابعيهم شَهِدُوا للنبي ﷺ بالبيان، وإشهادُهُ هو ﷺ على الصَّحَابَة في الموقف العظيم أنه بَلَّغ، وأنهم وَعَوْا؛ كما في موقفه في حجة الوداع، فأشهدهم على أنفسهم فشهدوا له بالبلاغ.

فهذا يرُدُّ هذا الادِّعَاء والدَّعوى.

- ومن المعلوم فطرة أن **صلاح القلوب والأرواح مُقَدَّم على صلاح الأبدان**؛ فكم من خبيثِ النَّفس ضيِّق الصدر، قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وكم من طيب النفس منشرح الصدر، وهو لا يعبأ بشَظَفِ العيش وكَدَرِ الحياة.

وكلما كانت حاجة الناس إلى شيء ما آكد وأكثر من غيره كان مبذولًا لهم ميسورًا أكثر من غيره، فلما كانت حاجة الناس إلى الهواء والأكسجين ولا يصبرون عليه أكثر من دقائق= كان هذا مبذولًا لهم من غير ثمن، ولا يستطيع أحد أن يمنعه من الناس.

وقل مثل ذلك في الماء ثم سائر الحاجات مرتبة حسب حاجة الناس إليها.

لكن **حاجة الناس إلى معرفة ربهم وخالقهم ومعبودهم هي فوق كل المراتب هذه الحاجات كلها؛** لذا كان اشتمال الكِتَاب والسُّنَّة وكلام السلف على ذكر العقائد وتقريرها وبيانها أكثر من غيره؛ ذكرًا وبيانًا وتقريرًا ونقلًا، وهذا من كمال حكمة الله ﷻ وتمام نعمته وإحسانه، بل كانت الطرق إلى تحصيل ذلك أكثر وأوسع وأبْيَن من غيره.

والحمد لله.

الدَّرْسُ الثَّانِي عَشَرْ

قَوَاعَدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَال العَقدِيّ (٣)

القاعدة الثالثة: لا نسخ في الأخبار ولا في أصول الدين:

ونعرف أن النَّسخَ طريقةٌ من طرق التعامل مع النصوص عند التَّعَارُض.

لكن لا نسخ فيما يتعلق بالعقائد؛ لأنها تقوم على الخبر عن الله، بل حتى الأحكام الشَّرعيَّة الأساسيَّة لا يدخلها النسخ، فهي أمور ثابتة، إنما النَّسخ يدخل في بعض تفاصيل الأحكام؛ وذلك من باب التَّخفيف على الأمة في التكاليف أو غير ذلك، **وهذه القاعدة تُقَرِّر أنه لا نسخ في الأخبار.**

ومن الأمثلة على ذلك:

- مسائل الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبأسمائه وصفاته وأفعاله= لا يمكن أن يدخل النسخ فيها.

- ما يتعلق بالرسالات وأسماء الأنبياء ورسالاتهم ومواقفهم مع أقوامهم= لا يمكن أن يدخل النسخ.
- ما يتعلق باليوم الآخر، فكل خبر وردنا عن اليوم الآخر والبعث والنشور والجنة والنار لا نسخ فيه.
- ما يتعلق بالملائكة وأسمائهم وأحوالهم.
- ما يتعلق بالكتب السابقة.

فكل هذا لا يدخله نسخ؛ لأنها أخبار والنسخ لا تدخل الأخبار؛ وذلك لأن المخبِر إذا أخبر عن شيء ثم أخبر عن ضده أو نسَخَه فكأنما أَكْذَبَ نفسه.

تعريف النسخ ومواضعه:

والنسخ في اصطلاح العلماء هو: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر.

وهذا تعريفه عند علماء الأصول خاصة، وهم المهتمون بها= لأنها تتعلق بالأحكام الشَّرعيَّة دون العقدية.

والنسخ دائمًا يحدث حينما يتعارض دليل مع دليل، فإذا تعذَّر الجمع بين الدليلين، وتعَذَّر ترجيح أحدهما على الآخر بسبب قوة الأول وضعف الثاني= لُجِئَ إلى النسخ.

والنسخ يكون بمعرفة تاريخ كل من الدليلَين، فيكون المتأخر من الدليلَين رافعًا لحكم المتقدِّم منهما، فهذا هو النسخ.

❖ النسخ يكون في الأوامر لا في الأخبار:

والشريعة عبارة عن قسمين:

القسم الأول: الخبر؛ فيخبر الله ﷻ عن أشياء وقَعَت أو ستَقَع.

والخبر هو: ما يخبر الله به سواء:

- عن ذاته وأسمائه وصفاته.
- أو عن أفعاله.
- أو ما أخبر به عن مفعولاته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.
- أو ما قص علينا من أخبار الأمم الماضية وأخبار الرسل ودعواتهم.
- أو ما سيكون من أحوال الناس في المستقبل.
- أو ما يتعلق باليوم الآخر من الجنة والنار والحساب والعقاب والبعث والحشر والجزاء.

فكل هذا وسيلةُ العلم به: الخبر عن الله وعن رسوله ﷺ، والخبرُ يُقَابَل بالتصديق والتسليم، فنعلم أن كل ما أخبر الله به هو حق على حقيقته، وهو صِدْقٌ يجب الإيمان به واعتقاد صحته وتصديقه.

ولذا فإن الأخبار لا يدخلها نسخ؛ لأن المخبِر عن شيء أنه كان أو سيكون= إذا أخبر بخلافه كان مُكذِّبا لنفسه، وذلك أمر غير جائز في حقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا في حقِّ رسوله ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ هو المبلِّغ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمن قال: سمعتُ كذا ورأيتُ كذا، ثم قال بعد ذلك: لم أسمع ولم أَرَ! فيكون قد أكذب نفسه، **والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزَّهٌ عن ذلك**.

القسم الثاني: الأمر؛ فيأمر الله أو ينهى عباده بأن يفعلوا كذا أو ينتهوا عن كذا.

فهذا النوع الثاني من أنواع الشريعة متعلق بالأمر والنهي، والأوامر تُقَابَل بالطاعة والانقياد، وبالتالي يمكن أن يدخل النسخ فيها ولكنها على قسمين:

الأول: أمور الأحكام الخاصة في تفاصيل الأحكام الشَّرعيَّة، فيمكن أن يدخل النسخ فيها.

الثاني: كليات الشريعة من الضروريات والحاجيات والتحسينيَّات؛ فهذه الأمور حَفِظَتها الشريعة؛ محافظةً على حياة الناس؛ فأصول العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وما يحفظ الضروريات وما يُحقِّق العدل والإحسان، وما يجلب الفضيلة ويدفع الرذيلة= كل ذلك لا يقع فيه النسخ، مع أنها أحكام شرعية، لكن هذه مسائل أصولية.

وإنما يقع النسخ في تفاصيل هذه المسائل فيما يتعلق بالهيئات والكيفيَّات والأمكنة والأزمنة والأعداد، وهذا جزء يسير إذا ما قُورِنَ بكليات الشريعة.

فالقول بعدم دخول النسخ في مسائل الاعتِقَاد يعني: ثبات أصول الدين وأصول الإيمان؛ فدعوة الرسل واحدة فهم إخوة لعِلَّات كما في الحديث، وكل رسول جاء يؤَكِّد ويصدِّق من سبقه من الرسل

فيما يتعلق بأصول الدين، وفيما يتعلق بأركان الإيمان، فنجدها واحدة بين جميع الرسل.

الأدلة على ذلك:

○ ما أمر الله به ﷻ نبيه ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٩].

○ وقوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠].

فسلسلة دعوات الهدى موصولةٌ حلقاتُها ومتفقةٌ عُرَاهَا؛ يُشَمِّر الجميع إلى غاية واحدة ويدعون إلى ربٍّ واحد ويهدون الناس إلى أصولٍ متحدةٍ، يدعو الآخِرُ منهم بدعوة الأول، ويترضَّى عنه ويترحَّم عليه.

الدليل على ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[الحشر:١٠].

وإذا بطل القول بالنسخ في الأخبار وفي أصول الدين فهذا يؤدي إلى= **إعمال الأدلة كلها التي قد يظهر فيها تعارض، لكنه ليس تعارضًا حقيقيًّا.**

فالقاعدة تقول: **إعمال الأدلة أولى من إسقاطها أو إسقاط أحدها**؛ فما دُمنَا عرفنا أنه لا يوجد نسخٌ فإذا ظهر نوع من التَّعَارُض بين الأدلة فهو إنما يكون:

- في نظر الناظر.
- أو في نظر المتأمل.
- أو في نظر المجتهد.

وبمزيد من التأمل والتحقيق سينجلي هذا التَّعَارُض وتتفق الأدلة على شيء واحد.

فكلُّ دعوى تردُّ نصًّا من النصوص الإيمانيَّة أو العَقدِيّة، أو نصًّا من نصوص الأخبار بحجة النسخ= فهي دعوى باطلة لا ينبغي الالتفات إليها.

اختلاف مفهوم النسخ عند بعض السلف:

أما ما ورد عن بعض السلف في بعض النصوص أنها منسوخة فهذا عند النظر والتحقيق **نجد أن ذلك كان جاريًا على اصطلاحهم**، وهذا الاصطلاح يختلف عن اصطلاح المتأخرين من الأصوليين.

فالسلف كانوا يُطلِقون على التخصيص والتقييد والاستثناء والبيان نسخًا، حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "ومن تأمَّل كلامَهم رأى مِن

ذلك فيه ما لا يُحصى، وزال عنه به إشكالاتٌ أوجبَها حملُ كلامِهم على الاصطلاح الحادث المتأخر".

فاصطلاح السلف في النسخ واسع أوسع من اصطلاح المتأخرين؛ ولهذا لا يُسمَّى ما قالوه نسخًا بحسب الاصطلاح المتأخِّر.

إذًا؛ هذه القاعدة مهمة جدًّا لتثبيت العقائد، وأنها لا تتخلّف ولا تتعارض، ولا تختلف عقائد الأنبياء بعضهم عن بعض.

القاعدة الرابعة: رَدُّ التنازع إلى الكِتَاب والسُّنَّة:

فكل ما تنازَعَت واختلَفَت فيه الأمة من أصول الدين، وبل حتى في فروع الدين= يجب رَدُّه إلى الكِتَاب والسُّنَّة؛ وذلك لأمور منها:

- ✓طلبُ رفع التنازع.
- ✓ودفع الاختلاف.
- ✓ومعرفة الحق والصواب.

فالتنازعُ أمرٌ طبيعيٌّ أن يقع بين الناس؛ لاختلاف المدارك واختلاف الأفهام يحصل هذا التنازع.

ولكن المنهيُّ عنه هو: البغي والظلم ومجاوزة الحد، ومن الأدلة على ذلك:

- النهي عن البغي والتفرق في الأمم السابقة الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].
- ولهذا حذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ من تنازع الأَوَّلِين الذين تفرَّقوا في الدين؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥].
- والنبي ﷺ ذَكَرَ تفرُّق اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرُّق النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وقال: **"وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة"** وفي رواية: **"كلهم في النار إلا واحدة"** قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: **"ما أنا عليه وأصحابي"**[١].

[١] أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وقال الألباني: حسن.

فالله ﷻ أمرنا حين نتنازع أن نَرُدَّ هذا التنازعَ إلى الكِتَاب والسُّنَّة: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

- **فالرد إلى الله ﷻ هو:** الرد إلى القرآن الكريم.
- **والرد إلى النبي ﷺ هو:** الرجوع إليه حال حياته، وإلى سنته بعد مماته.

وهذا من مقتضيات الإيمان: أن نرد ما تنازعنا فيه إلى الله ورسوله ﷺ؛ ولهذا قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

وحذَّرنا من **مخالفةِ حكم النبي ﷺ**؛ فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥]

وجعلَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ردَّ التنازع إلى الله ورسوله ﷺ من علامات الإيمان، بل من شروط الإيمان؛ فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في آية التنازع: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]

فالذين يرُدُّون تنازعهم واختلافهم إلى الكِتَاب والسُّنَّة هم:

- الذين آمنوا بالله ربًّا.

- وآمنوا باليوم الآخر.
- وقد سلكوا الطريق الصحيح السليم؛ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[النساء:٥٩].

ونحن حينما نرجِعُ إلى العالِمِ في الشريعة نَستفتِيه ونتَّبعه في قوله وننقاد إليه فإنما ذلك من جهة كونه عالمًا، لا من أي جهة أخرى، فهو وإن كان بشرًا مثلَنا إلا أنه مُبلِّغ عن الله ورسوله ﷺ؛ **ولهذا كان العلماء بمثابة الموَقِّعين عن الله ورسوله ﷺ**، فالله ﷻ أمرنا بطاعتهم من جهة أنهم يبلغون عن الله ورسوله ﷺ، ويأمرون بما أمر الله به ورسوله ﷺ.

وإلا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أصناف من خالف هذه القاعدة:

والذين خالفوا هذه القاعدة هم أنواع:

- **فمنهم من جعل اتِّباع الأجداد والآباء في أصل الدين هو= المرجوع إليه دون غيره**، حتى ردُّوا بذلك براهين الرسالة وحجة القرآن ودليل العقل، فقالوا: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾[الزخرف:٢٢]، فلما قيل لهم: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾[الزخرف:٢٤]، لم يكن لهم جواب إلا

الإنكار: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٤]، **وهذا إشكالٌ من القديم.**

- وفي الزمن الحديث **الذين يقلدون من يُحسِنُون فيهم الظن لمجرد التقليد، ويعارضون بأحوال مشايخهم وأقوالهم مشايخهم** ما ورد في الكِتَاب والسُّنَّة، فهذا ما يُسمَّى **بالتقليد الأعمى**، ومن ذلك:
  - **ما فعلته الشيعة الإماميَّة في اتِّباع قول المعصوم عندهم،** فيزعمون في أئمتهم العصمة، فهم يتبعون هؤلاء الأئمة وإن خالف ما نسبه إليهم، وأحيانًا كثيرة ما يُنسَب إلى هؤلاء الأئمة ما يكون زورًا وبهتانًا والأئمةُ منه بَرَاء، **فيجعلون اتِّباع هؤلاء الأئمة هو العمدة.**

    وأما ما خالفهم من النصوص سواء كانت من القرآن؛ فالقرآن يُتَأوّل حتى يكون موافقًا لما نُسِبَ لهؤلاء الأئمة، وأما السُّنَّة فتُرَدُّ؛ لأنهم لهم مروياتهم الخاصة!
  - **من جعل أقوال إمامٍ من أئمة الزهد والتصوف هو الحكم،** ويَرُدُّ كل من خالف ذلك، حتى ولو كان هذا المخالَف هو ما تقتضيه الأدلة من الكِتَاب والسُّنَّة وإِجمَاع الأمة؛ بحجة أن

إمامه قد ثبَتَت ولايتُه فلا تُتَصوَّر مخالفته للكتاب والسُّنَّة بحال! وهذا ظن فاسد.

- **من عارض الشريعة برأي أو قياس**، وجعل ذلك أصلًا يُعتَمد عليه، ويردُّ إليه كل نزاع، ويدخل في هؤلاء من يُسَمَّون بأهل التحسين والتقبيح العقليين، فعندهم الحَسَن ما حَسَّنه العقل والقبيح ما استقبحه العقل.
- **من يجعل ما يراه جمهور الناس وعامة الناس أصلًا يُحاكم إليه**، ولو كان ذلك مخالفًا للشريعة، أي: اتِّباع الأهواء واتِّباع ما يسمُّونَه بالكثرة الغالبة.

فالمقصود من هذه القاعدة أننا يمكن لنا أن نتنازع، لكن الواجب علينا عند الاختلاف وعند التنازع= **أن نرد ما اختلفنا فيه وتنازعنا فيه إلى الكِتَاب والسُّنَّة**، ونكون بذلك قد اتَّصفنا بصفة الإيمان الحقيقي وسلكنا الطريق السليم.

فنسأل الله عز وجل التوفيق والتسديد.

الدَّرْسُ الثَّالِثُ عَشَر

قَوَاعَدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِر الاستِدلَال العَقدِيّ

(٤)

القاعدة الخامسة: دَرْءُ التَّعَارُض بين نصُوص الكِتَاب والسُّنَّة:

أي: **لا يوجد تعارض بين ما قاله الله ﷻ وبينما قاله النبي ﷺ**، سواء كان ذلك:

- بين آيةٍ وآيةٍ.
- أو بين حديثٍ صحيح وحديثٍ آخرَ صحيح.
- أو بين آيةٍ وحديثٍ صحيح.

بل ما قاله الله ﷻ وما قاله رسول الله ﷺ متَّفِقٌ كلُّه؛ لأنه يخرج من مشكاة واحدة، فهذا دل على ضرورة الاتفاق بين نصوص الكِتَاب والسنة، ونفي التَّعَارُض والاختلاف بينها.

إذًا؛ كلُّ ما يُظَنُّ من التَّعَارُض أو الاختلاف بين بعض النصوص، فذلك يكون في نظر النَّاظر، لا في حقيقة الأمر، فما

أخبر به الرسول ﷺ من القرآن والسنة هو= من علم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي يعلم السر وأخفى.

✓ **فكل ما أخبر به الرسول ﷺ= فالله قد أخبر به.**

✓ **وكل ما أمر به النبي ﷺ= فالله قد أمر به.**

ومحال أن يقع تضاد أو تعارض أو اختلاف فيما أخبر الله به أو أخبر به رسوله ﷺ، أو أمر به الله أو أمر به رسوله ﷺ؛ لأن القرآن هو: **كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكلامه إنما يُوافِقُ علمه؛ فمحال أن يقع بين آياته اختلاف وتعارض.**

أمثلة على ما يستحيل وقوعه في القرآن:

- أن تُخبِر آيةٌ بثبوت شيء، ثم تُخبِر آية أخرى بنفيه!
- أو تَأمُر آيةٌ بفعل شيء ثم تَأمُر آيةٌ أخرى بتركه!

بل هذا يُعدُّ من أمارات الجهل والعجز التي يتنزَّهُ الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يتصف بها.

وما يُقال في القرآن يُقال مِثلُهُ في السنة الصحيحة، فلا يمكن أن يكون هناك تعارض بين الأحاديث الصحيحة، ولا بين القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، بل هذه النصوص تتشابه فيما بينها ويؤيد بعضُهَا بعضًا، ويشرح بعضُهَا بعضًا ويؤكد بعضُهَا بعضًا،

إلا في قاعدة النسخ أي: أن يكون في بعض النصوص نسخ، وذلك فيما يتعلق بالأحكام الفرعية.

أما ما يظهر للناظر أو المتأمل أو المجتهد من تعارضٍ بين بعض النصوص سواء في الكِتَاب أو السنة= فهو تعارضٌ ظاهري يقع في نفس المجتهد وفهمه، لا حقيقةَ له في نفس الأمر.

وسبب وهم التَّعَارُض في النصوص:

- إما نقصٌ في العلم.
- أو نقصٌ في الفهم.
- أو نقصٌ فيهما معا.

أما أن يقع التَّعَارُض في نفس الأمر وحقيقته؛ بأن يصدر عن الشارع الحكيم دليلان متعارضان= يقتضي أحدهما نفي ما يقتضيه الآخر، ثم لا يكون بينهما تناسق ولا يجمع بينهما جامع، أو يؤلف بينهما رابط= **فهذا لا يكون بحال**؛ بل هذا سفهٌ وتِيهٌ يتنزَّه عنه الرَّجل العاقل فضلًا عن الشارع الحكيم.

ولهذا يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في كتابه الموافقات: "**أدلة الشريعة لا تتعارض في نفس الأمر** -أي: في الحقيقة والواقع-؛

ولذلك لا تجد البَتَّةَ دليلَيْن أجمع المسلمون على تعارُضِهِمَا؛ بحيث وجب عليه الوقوف، لكن قد يقع التَّعَارُض في فَهمِ النَّاظرين".

ولهذا يجب على المجتهد إعادة التأمل وإعادة النظر، حتى ينجلي هذا الاختلاف.

❖ أسباب التَّعَارُض بين النصوص:

ولهذا التَّعَارُض الذي يظهر –وليس تعارضًا حقيقة– أسباب:

أولًا: قد يكون هناك علاقة عموم وتخصيص، أي: أن يكون النَّصُّ عامًّا، ثم يَرِد نصٌّ يخصِّصُ هذا العموم.

ثانيًا: أن يكون هناك علاقة إطلاق وتخصيص، أي: أن يكون نصًّا مطلقًا، ثم يَرِد نصٌّ آخر يُقيِّد هذا الإطلاق.

ثالثًا: أن يكون هناك استثناء.

فهذه من الأسباب التي قد يظهر من خلالها التَّعَارُض.

رابعًا: الجهل بسعة لسان العرب، والقرآن نزل بلسان العرب، ولهم في الكلام عدة أساليب:

- فالعرب تُخاطِب بالشيء عامًّا ظاهرًا يُراد به العام الظاهر، ثم يُستَغنَى بأول هذا عن آخره.

- وعامًّا ظاهرًا يُراد به الخاص.
- وظاهرًا يُعرَف في سياقه أنه يُرَاد به غَيرُ ظاهِرِه.
- والعرب تُسمِّي الشَّيءَ الواحدَ بالأسماء الكثيرة.
- وتُسمِّي بالاسمِ الواحدِ المعانيَ الكثيرةَ.

كل هذا وغيره من لسان العرب وفطرته.

وبلسان القرآن الكريم جاءت السنة، فمن جَهِل ذلك اختلف عنده العلم بالكِتَاب والسنة، فهذا واحد من أسباب ظهور التَّعَارُض عند بعض الناس.

خامسًا: الوَضعُ؛ أي: وضع الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ الذي فَعَلَه الزَّنادِقة، فيُعارضون بها ما صَحَّ من معاني الكِتَاب والسنَّة؛ وذلك بغرض الطعن في الإسلام والتَّشكيك في أصولِ مصادِرِه.

سادسًا: الوَهمُ الذي قد يَقَع، حتى عند بعض الثقات من العلماء؛ فيروي الحديث على وجهٍ ظنًّا منه أنه صحيحٌ وليس الأمر كذلك، قال ابن القَيِّم: "فإذا وَقع التَّعَارُض، فإما أن يكون أحدُ الحديثَين ليس من كلامِه ﷺ -أي: ليس حديثًا أصلا-، وقد غَلِطَ فيه بعض الرُّواةِ مع كونه ثِقةً ثَبْتًا"، إذًا؛ الثقة قد يَغلَط وقد يَهِي.

سابعًا: أن الرسول ﷺ قد يُخبِر بالشيء، فيُؤَدِّي المُخبِر عنه الخبر مُتَقَصًّا، أي: كاملًا، ثم يأتي مُخبِر آخر فيَختَصره، وثالث من المُخبِرين عن النبي ﷺ يأتي ببعض معنى الخبر دون بعضه، فإذا دُرِسَت هذه الأحوال انتفى التَّعَارُض؛ لأن الحديث قد يرويه راوٍ كاملًا، ورَاوٍ ثَانٍ يذكر بعضَه، ورَاوٍ ثالث يذكره مختصرًا، فيظهر عند بعض الناظرين نوع من التَّعَارُض، وهو ليس في الحقيقة كذلك.

ثامنًا: أن يكون هناك نسخ، فلا بد من معرفة المتقدم والمتأخر، للوقوف على مسألة النسخ بين النصوص.

فهذا وأمثاله قد يُظهِر التَّعَارُض بين النصوص.

❖ كيف ندفع التَّعَارُض بين النصوص؟

مذهب الجمهور في دفع التَّعَارُض أن يسلُك المجتهد الطُّرقَ التالية مرتَّبة:

الطريق الأول: أن يقوم المجتهد بالجمع بين الدَّليلَيْن؛ لأن جمع الأدلة أَوْلى من إهمالها، وذلك لأمور عدة:

- **لاحتمال أن يكون الدَّليلَيْن في حالتَين مختلفتَين؛** فهذا الدليل في موضوع والدليل الثاني في موضوع آخر يختلف عن الأول.

- **أو أن يكون بينهما عموم وخصوص.**
- **أو يكون بينهما إطلاقًا وتقييدًا.**

قال الإمام الشافعي رحمه الله: "ولا يُنسَب الحديثان إلى الاختلاف ما كان لهما وجهًا يمضِيَان فيه؛ إنما المختلف ما لم يمضِ إلا بسقوط غيره"، أي: ما لا يتحقَّقُ إلا أن يسقط الحديث الآخر.

مثل: أن يكون الحديثان في الشيء الواحد، هذا يُحِلُّه وهذا يحرّمُه.

الطريق الثاني: إذا لم يتيسَّر الجمع بين الحدِيثَين، وكانَا مما يقبلان النسخ -وهذا يكون في الأمور الحكميَّة الفرعيَّة-= **فهنا ننظر في التاريخ لمعرفة المتقدم من المتأخر**، فيكون المتأخر ناسخًا والمتقدم منسُوخًا.

الطريق الثالث: إذا تعذَّر العلم بالتاريخ وبالتالي سقط النسخ= **يُصَارُ إلى التَّرجِيح**، أي: ترجيح أحد الدَّليلَيْن على الآخر، ووجوه التَّرجِيح كثيرة ومتعددة.

وإذا تعذر التَّرجِيح فبعد ذلك اختلف العلماء على آراء عدة:

- فمنهم من قال: يَتَوَقَّف المجتهد إلى أن يتبيَّن له وجه التَّرجِيح.
- ومنهم من يقول: يَتَخَيَّر بين الدَّليلَيْن.
- ومنهم من يقول: يَتَساقط الدَّليلَيْن، أي: لا يحتجُّ بأحدهما دون الآخر.

فهذه هي الطرق المُتَّبعة في التعامل مع الأدلة المتعارضة.

مثال تطبيقي: **التَّعَارُض بين حديث وحديث**، فزعم بعضُهم أن قوله ﷺ: "**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء**"[1]، فقالوا: هذا الحديث يعارض قوله ﷺ: "**ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**"، قلتُ -أي: الراوي أبو ذر-: وإن زنى وإن سرق؟! قال: "**وإن زنى وإن سرق**" وكرَّرها ثلاثًا ثم قال ﷺ في الرابعة: "**على رغم أنف أبي ذر**"[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (٩٤).

وهذه الأحاديث كلها صحيحة:

فالحديث الأول يَنفِي دخول النار من كان في قلبه ذَرَّة إيمان.

والحديث الثاني يُثبِت دخول الجنة من كان في قلبه ذَرَّة إيمان وإن فعل الكبائر.

فقالوا: الزنا والسرقة أعظم عند الله من مثقال حبةٍ من خَرْدَل من كِبْر، فزَعَموا أن ذلك تعارض.

والحقيقة أن الكِبْر نوعان:

١- **الكِبْر المنافي للإيمان بالكليَّة**، فهذا لا يدخل صاحبه الجنة أبدًا؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، وهذا الكِبْر هو المنافي للإيمان، والذي يحقِّق الكفر لصاحبه، **ومنهم**:

- إبليس.
- وفرعون.
- وكِبْر اليهود.

٢- **كِبْرٌ لا ينافي الإيمان بالكليَّة**، وإنما ينافي كماله الواجب.

مثل: احتقار الخلق وجحد الحق؛ كما قال النبي ﷺ:

"الكبر بَطَر الحق وغَمْطُ الناس"[١].

فهذا لا يُخلَّد صاحبه النار، حتى ولو دخل النار لا يُخلَّد فيها؛ لأنه لا يزال مؤمنًا.

الخلاصة:

- **من تَلَبَّس بالنوع الأول من أنواع الكِبْر:** حُرِّم عليه دخول الجنة ابتداءً ودَوْمًا فلا يدخلها أبدًا.
- **أما من تَلَبَّس بالنوع الثاني وهو:** الكبر الذي يعني بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس؛ فهذا يكون مآله إلى الجنة، وإن دخل النار، فقد يُحرَم من دخول الجنة ابتداءً، لكن لا يُحرَم منها دَوْمًا، فمصيره إلى الجنة.

وهذا هو مذهب أهل السنة في مرتكب الكبير: أن مرتكب الكبيرة حتى ولو دخل النار، لا يبقى خالدًا فيها كما يُخَلَّد الكفار.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

القاعدة السادسة: درء التَّعَارُض بين النَّقل والعقل:

والقاعدة السابقة كانت في درء التَّعَارُض بين نصوص الكِتَاب والسنة، فهي خرجت من مشكاة واحدة، فلا يضرب بعضُهَا بعضًا ولا يعارض بعضُهَا بعضًا، بل يؤيد بعضُهَا بعضًا؛ لأن كلَّها من عند الله ﷻ.

وهذه القاعدة السادسة مُكمِّلة لسابقتها؛ لأنها تتحدث عن التَّعَارُض بين النَّقل الذي هو: الكِتَاب والسنة والنصوص والشريعة وبين ما يُسمَّى: عَقلًا.

فينبغي دَرْءُ هذا التَّعَارُض أو منع هذا التَّعَارُض، فهو تعارض وَهْمِيّ، فنصوص الكِتَاب والسنة الصحيحة الصريحة لا يُعارضها شيء من المعقولات الصحيحة الصريحة، وما يقال إنه يعارض الكِتَاب والسنة من المعقولات فهي بالتأكيد ليست من المعقولات الصحيحة.

وعند التأمل نجد للتعارض تفسيرات عدة:

- أنها غير صحيحة.
- أو أنها صحيحة لكنها غير صريحة.

ووجه ذلك: أن العقل خلقه الله ﷻ وجَعَل من وظائفه: أن يَفهَم عنه:

فأولا: العقل من مخلوقات الله، وهو الذي يميِّز الإنسان عن سائر الحيوان؛ فالله ﷻ خلقه.

وثانيًا: جعل من وظائفه أن يفهم عن الله مراده، وأن يَعقِل عن الله الدين والشرع.

وبالتالي: **لا يجوز في حَقِّه أن يَرُدَّ شيئًا من الوحي،** سواء من الكِتَاب أو السنة؛ بحجة أنه يخالف العقل.

بل الشريعة كلها بأخبارها وأحكامها ليس فيها ما يُعلم بطلانه بالعقل، **وإنما العقل يشهد بصِحَّتِها سواء:**

- **على الإجمال.**
- **وعلى التفصيل.**

شهادة العقل بصحة الوحي على الإجمال:

أما الإجمال: فمن جهة شهادة العقل بصحة النبوة، فنحن بعقولنا عرفنا صحة النبوة، وبعقولنا عرفنا صدق النبي ﷺ، فيلزم في ذلك أن نُصدِّق النبي ﷺ في كل ما يُخبِر به من الكِتَاب والسنة؛ فهذا تصديق العقل من حيث الجملة للنبي ﷺ.

إذًا؛ ما دُمْنَا آمَنَّا أن هذا هو رسول الله ﷺ، وعرفنا ذلك بعقولنا، وعرفنا صِدقَه وعرفنا صحة نبوته، **فبعد ذلك: كل ما يخبر به أو يأمر عنه فلا يمكن أن تُعارضَه عقولنا.**

شهادة العقل بصحة الوحي على التفصيل:

أما من جهة التفصيل: فمسائلُ ليس فيها ما يَرُدُّه العقل، بل **كلُّ ما أدركَه العقل من مسائلها فهو يَشهَد له بالصحة**؛ فهناك أمور العقل لا يعارضها لكنه لا يُدرِكُهَا؛ وذلك لكمال الشريعة.

إذًا:

١. **كل ما أدرَكَهُ العقل من مسائل الشريعة:** فإنما هو يشهد لها بالصحة تصديقًا وتعضيدًا.

٢. **أما ما قَصُرَ العقل عن دَرْكِه من مسائلها:** فهذا إنما هو لعِظَمِ الشريعة وتفوُّقها.

ومع ذلك فليس في العقل ما يمنع وقوع تلك المسائل التي عَجِزَ العقل عن دَرْكِها، **فالشريعة قد تأتي بما يُحيِّر العقول لكنها لا يمكن أن تأتي بما تُحيلُه العقول**، أي: بما تمنع العقول وقوعه.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنزلَ الكِتَاب الذي هو الشريعة، وأنزل الميزان.

ومن الميزان: **قياسُ العقلِ**، أي: العقول التي ركَّبها الله فينا، فَهُمَا في الإنزال أَخَوان؛ **كما أن الله ﷻ أنزل الكِتَاب فكذلك خَلَق العقل، وهُمَا في معرفة الأحكام شَقِيقَان.**

ولهذا دائما نجد أن القرآن الكريم يُحاكِم الناس إلى عقولهم: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٦]، وهذا في كثير من أمور العقائد التي خَالفُوا فيها أمر الله.

وبالتالي الشرع يكون حاكمًا بإطلاق، ومُقَدَّمًا بإطلاق.

أقسام العلوم باعتبار موقفها مع العقل:

ونحن قبل ذلك قسَّمنا العلوم إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم العلوم الضرورية التي لا يمكن التشكيك فيها:

مثل: علم الإنسان بوجوده.

وهذه العلوم الضرورية كلها صحيحة، فهذه لا يمكن أن تُعارِض الشرع، فكل ما يُسمَّى بالعقل الضروري الفطري أو العلوم الضرورية التي يتفق فيها

جميع العقلاء وجميع الأصِحَّاء، وهذه لا يمكن أن تتعارض مع الشريعة.

٢- قسم العلوم النظرية:

وهذه التي تَفَاوَت فيها الناس في الاستدلال والتفكير والتأمل وقد يختلفون.

وقد يكون فيها:

- الدليل الصحيح.
- وقد يكون فيها الدليل الخطأ.
- وقد يكون فيها أدِلَّة أقرب إلى الصحة.
- أو أخرى أقرب إلى البطلان.

ولهذا قال الإمام الشاطبي ﷺ: "وقد زعم أهل العقول أن النَّظريَّات لا يمكن الاتفاق فيها عادةً، وذلك لاختلاف القرائح والأنظار"، أي: باختلاف الناس.

إذًا؛ فالناس في الأمور الاستدلالية النظرية التي تقتضي التأمل وتقتضي عادةً النظر، وتقتضي المناظرة والمناقشة، فهذه في العادة= لا يتفقون عليها، لكن

الأمور الضرورية= لا يمكن أن يختلف فيها الناس ولا يمكن أن تتعارض مع الشريعة.

مثل:

- العلم بوجود الله ﷻ.
- أو بوجود الإنسان نفسه.
- أو أن الاثنين ضعف الواحد

٣- قسم يتعلق بالغيبيات التي لا سبيل للعقل فيها:

والعلم بها يتمَحَّض لخبر الشارع، وهو الذي يُخبِر عنها جملةً وتفصيلا، وابتداءً وانتهاءً، والعقل قد يدرك حُسْن بعض هذه المسائل.

مثل: بعض الصفات والبعث والجزاء.

فالعقل يدرك حُسْنها لكنه لا يُدركُها ابتداءً؛ فلولا أن الله ﷻ أخبرنا بأن هناك حياة بعد الموت لما عرفنا ذلك بعقولنا ولا بحواسنا، فمَصدرُ علمنا بالحياة بعد الموت وبالجزاء بالجنة وبالنار هو: القرآن الكريم.

الخلاصة:

المعلومات جميعها تفتقر إلى خبر الشارع:

- **أما العلوم الضرورية؛ فأحيانًا تفتقر لخبر الشارع؛** لأن هؤلاء العقلاء يحتاجون أحيانًا إلى تنبيه وإرشاد وتوجيه؛ لأن هناك أمور قد تخفى معه صفة الضرورة لهذه العلوم، وهذه هي فائدة بعثة الرسل عليهم السلام.

مثل: الله عز وجل يقول للنبي ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، مع أن العلم بالموت علم ضروري عند كل الناس، وكل يعلم أنه سيموت، لكن يحتاج إلى تذكير وإلى تنبيه، حتى يستعدَّ له.

فالمقصود في هذا الباب:

أن العقل الصحيح لا يمكن أن يعارض النَّقل الصحيح، بشرط الصحة، أي: أن يكون العقل صحيحًا صريحًا، وأن يكون الشرع أيضا صحيحًا صريحًا.

فإذا ظهر هناك تعارض بين الأمرين فهو لأحد هذه الأسباب:

- **فإما أن ما سُمِّي عقلًا:**
  - ليس بصحيح.
  - أو هو صحيح لكنه ليس بصريح.
- **أو أن ما سُمِّي نقلًا أو شرعًا:**
  - ليس بصحيح؛ كالأحاديث الضعيفة والموضوعة.
  - أو كانت النصوص صحيحة لكنها ليست صريحة في هذا الباب.

أما مع وجود الصحة والصراحة في الدليل سواءً كان عقليًّا أو نقليًّا: فلا يمكن أن يحدث تعارض، وإنما هو تعارض وَهْمِيٌّ يزول بالتأمل والتدبر.

يقول الإمام الشِّهْرِستاني رَحِمَهُ اللهُ: "إن أول شُبْهَة وقعت في الخليقة: شُبْهَة إبليس -لعنه الله-.

ومصدرها: استِدلالُه بالرأي في مُقابلةِ النص، واختيارُه الهوى في معارضة الأمر، واستكبارُه بالمادة التي خُلِق منها وهي النار على مادة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي الطين، **فإبليس هو إمام المبتَدِعة**".

ولذلك قال بعض أهل العلم: "**أول من استعمل القياس الفاسد إبليس**"، ومن ذلك تَشعَّبَت كل الشبهات؛ فإذا فَحَصْتَ ما عند كل فرقة من فِرَقِ المِلَّة= وَجدتَهَا ترتكز إلى شبهة إبليس الأولى وهي: **معارضة النص الشرعي بالرأي، ومعارضة الأمر بالهوى**؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم:٢٣].

وإلا فالواجب على كل مؤمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أن يُحكِّم شرع الله في كل شيء وإن ظهر له التَّعَارُض، فإذا ظهر له التَّعَارُض فعليه:

١. أن يتَّهِم عقلَه وفهمَه أوَّلًا.

٢. ويجعل ذلك مُشتبِهًا عليه.

٣. ويجعل نصوص الشرع هي المحكَّمة.

وهذا هو مذهب الراسخين في العلم والإيمان الذين: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧].

وَكُلُّ من خالف الكِتَاب إنما يحتَجُّ:

- بقياس فاسد يُسَمِّيه عقلًا.
- أو بنقلٍ كاذب يُسَمِّيه شرعًا.

- أو كما تفعل غلاة الصوفية مما يُسمُّونَه بالخطاب أو الذوق أو الوجد.

وكل هذا من عمل الشيطان؛ لأنه لا ينبغي أن يُعارَضَ شرعُ الله بشيء من وسائل الناس التي اعتادوها.

الدَّرْسُ الرَّابِع عَشَر

قَوَاعَدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِر الاستِدلَال العَقدِيّ (٥)

تكملة القاعدة السادسة:

❖ **مسألةُ إزالةِ التَّعَارُض بين العقل والنَّقل.**

حقيقة قانون التأويل:

إن المخالفين لهذه القاعدة جعلوا للمعارضة بين العقل والنَّقل قانونًا سموه: (قانون التأويل).

وهذا القانون صُورتُه كالتالي:

إذا تعارضتِ الأدلة السَّمعيَّة -أي: الشرع- والأدلة العقليَّة، -وهم يعبِّرون: (أو الظواهر النَّقلية -الشرع- والقواطع العقليَّة)، وعندهم غير هذا من العبارات-.

ومُلخَّصُها:

إذا تعارض الشرع مع ما يُسمُّونَهُ عقلًا، فله واحد من الأمور التالية:

١- **إما أن نجمع بين المتعارضين**، وهذا أمر مُحَالٌ؛ لأنه جَمَع بين النقيضين.

٢- **وإما أن نَرُدَّ الجميع**، أي: لا نأخذ بالشرع ولا بالعقل، وهذا أيضا مُحَالٌ؛ لأنه رفعٌ للنقيضين.

والقاعدة تقول: لا يُجمَعُ بين النقيضين، ولا يرتفع النقيضان، فلا بد من وجود أحدهما.

فما الذي يقدم عندهم هل الشرع أو العقل؟ فليس أمامنا إلا أمران.

٣- **أن نقدِّم الشرع**؛ وقالوا: لو قدَّمنا الشرع فهذا مُحَالٌ؛ لأننا ما عرفنا الشرع إلا بالعقل.

إذًا، هم هكذا يقولون: أن العقل هو أصل النَّقل، وبالعقل عرفنا صحة الشرع، **فلو قدمنا الشرع على العقل= كان هذا قدْحًا في العقل الذي هو: أصل الشرع.**

والقدح -أي: الطعن- في أصل الشيء هو طعنٌ في نفسه، فكان تقديم الشرع قدحًا في النَّقل وفي العقل؛ لأننا قدمنا الفرع على الأصل.

إذًا؛ عندهم الأصل هو العقل؛ لأنهم بعقولهم عرفوا صحة الشرع، والفرع والنتيجة هو: الشرع، فلو قُدِّم الفرع على الأصل= كان هذا طعنًا في الأصل وفي الفرع.

٤- **فالخلاصة والنتيجة: أنه يجب تقديم العقل.**

ويبقى السؤال: ماذا نفعل بالنَّقل؟

قالوا: نلجأ لقانون التأويل، وهو على أحد حالين:

- **إما أن نؤوِّله**، أي: نفسره بطريقة تنفي التَّعَارُض بينه وبين العقل.
- **وإما أن نفوِّضَ** العلم به إلى الله ﷻ، ونقول: لا نعلم والله ﷻ أعلم بمراده.

وهذا هو القانون سموه: (قانون التأويل).

الردُّ على قانون التأويل:

وقد تصدَّى العلماء لمناقشة هذا القانون، ومنهم:

- شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم: (دفع تعارض العقل والنَّقل).
- وتلميذه ابن القيم رحمه الله.

وملخص الجواب على هذا القانون أن يُقال:

إن عمدة من يُخالف الكِتَاب والسنة من الطوائف والفِرَق: **أن تضع كلُّ طائفةٍ لنفسها قانونًا تُعارِض به نصوص الشريعة، ويكون هذا القانون هو الذي به يدينون**، وعليه يعتمدون، وهذا القانون يكون هو المحكَم عندهم، وغيرُه يكون متشابهًا.

ولهذا تجد كل طائفةٍ تَعرِضُ ما بَلَغها من نصوص الشرع على ما وضعته من قوانين:

☒ **فإن وَافَقَ الشَّرعُ ما عندها من قانون**= قالت بنصوص الشرع من باب الاعتبار لا من باب الاعتماد.

☒ **أما إذا خالفت نصوص الشرع قوانينهم**؛ فنصُّ الشرع على أحد حالين:

- إما أن يُرَدَّ **بالتأويل** الذي هو في الحقيقة تحريف.

- وإما أن **يُفَوَّض** العلم بها إلى عَالِمها، وهو الله ﷻ المتكلم بها، ويعتبرون هذا تقديرًا للنصوص.

أمثلة على ذلك:

- **الفلاسفة ومن تبعهم من المتكلمين:** وضعوا قانونهم وبنوه على العقل؛ فَرَدُّوا به النصوص.
- **والمتصوفة وغلاتهم:** بنوا قانونهم على المكاشفات والأذواق والمواجيد، والأحوال، **وهي تُعتَبر حالة خاصةً بالفرد**، أي: ما يتذوَّقه وما ينكشف له وما يشعر به في داخل نفسه= يُعارض به نصوص الأنبياء.
- **والأمراء والحُكَّام:** وضعوا قانونهم، وبنوه على السياسة والمصالح والمنافع، وعارضوا بذلك نصوص الأنبياء.

وكل طائفة تدَّعِي الحق والإِحكَامَ لنفسها، وتدَّعي في الوقت نفسه الباطل والتَّشابه لمن يُعارضها من الطوائف الأخرى.

والواجب: أن نجعل كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ هو الإمام والفرقان الذي يجب اتِّباعُه؛ فنثبت ما أثبته الله ﷻ ورسوله ﷺ، وننفي ما نفاه الله ورسوله ﷺ، ونأمر بما أمر الله به ورسوله ﷺ، وننهى عمَّا نهى عنه الله عنه ورسوله ﷺ.

أما هذه العبارات المُجملة المحدثَة الغريبة: فلا يجب قبولها حتى نُفسِّر معناها: فنقبل ما وافق الشرع، ونَرُدُّ ما خالف الشرع.

مُقدِّمات قانون المتكلمين:

وقانون المتكلمين هذا مبني على ثلاث مقدمات:

المقدمة الأولى: أن هناك تعارض بين الشرع والعقل، أي قالوا بإمكانية حصول التَّعَارُض بين الشرع والعقل.

المقدمة الثانية: قالوا بانحصار التقسيم فيما ذكروه من الأقسام الأربعة:

١- إما أن نقبل الدَّليلَيْن.

٢- أو نَرُدَّ الدَّليلَيْن.

٣- أو نقبل دليل الشرع ونَرُدَّ دليل العقل.

٤- أو نقبل دليل العقل ونَرُدَّ دليل الشرع.

المقدمة الثالثة: ثم قالوا في بطلان الأقسام الثلاثة الأولى، وتعيين القسم الرابع الذي هو: **تقديم الدليل العقلي على الدليل الشرعي مطلقًا**، فأبطلوا المقدمات الأولى وأثبتوا المقدمة الأخيرة.

وهذا في الحقيقة خطأ لأسباب:

أولًا: لأن الدَّليلَيْن الشرعي والعقلي **إذا كان قطعيَّين:** فلا يمكن التَّعَارُض بين دليل قطعي ودليل قطعي.

ثانيًا: إذا كان أحدهما قطعيًّا والآخر ظنِّيا: فالقطع هو الذي يُقدَّم ويترك الظنِّي.

فالقطعيُّ: إن كان شرعًا قُدِّم وإن كان عقلا قُدِّم؛ فإذا كان الدليل القطعي هو العقل فيُقدَّم؛ لأنه قطعي وليس لأنه عقلي، فأيُّهُما كان قطعيًّا يكون هو المقدم، وهذا هو الذي يصح.

ثالثًا: أما إذا كانا ظنيين: فيُصار إلى التَّرجِيح، فنرجِّح ما ترجحه العلامات والأَمَارات والقرائن، والذي يترجح هو الذي يُقَدَّم سواءً كان عقليًّا أو كان شرعيًّا.

إذًا:

☒ **دعوى أن يُقَدَّم الدليل العقلي دائما ليس بصحيح.**

☒ **ودعوى أن يُقَدَّم الدليل الشرعي دائما حتى ولو كان ضعيفًا وحتى ولو كان نصًّا موضوعًا، فهذا ليس بصحيح.**

وإنما الذي يُقدَّم دائما هو القطعي، فما كان قطعيَّ الثبوت والدلالة يُقدَّم سواءً كان شرعيًّا أو كان عقليًّا.

فهذا هو الذي ينبغي الاعتماد والتعويل عليه.

القاعدة السابعة: ظَوَاهِرُ نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّة مفهومَةٌ لدى المُخَاطَبِين بها:

فَمَا يَظهَرُ من هذه النصوص مفهومةُ المَعنَى لدى من خُوطِب بها لما يلي:

أولًا: لأن كلامَ الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ كلامٌ عربيٌّ مبينٌ، وظاهره في غاية البيان، وهو بالتالي يكون مفهومًا لدى المخَاطَبِين به من أهل هذا اللسان العربي، **ولا سيما ما يتعلق من هذه النصوص بقضايا الإيمان والاعتقاد،** والتي كَثُر خَوْضُ المتأخرين وكَثُر اختلافهم فيها.

ثانيًا: أنه أُنزِل على رسولٍ عربيٍّ، وخُوطِب به أول الأمر أُمَّةٌ عربية، وكل رسولٍ إنما يُرسَل بلسان قومه؛ حتى يُقِيمَ عليهم الحجَّة، وحتى يفهم عنه مراد الله ومراد الشريعة.

ثالثًا: أن المقصود بالقرآن والسُّنَّة الهداية والإرشاد؛ فلازمٌ أن يكون بَيِّنًا للأمة المخَاطَبَة به حتى يكون حجَّةً على الناس، ولا يكون ذلك حتى تفهمه هذه الأُمَّة وتعقله، ولا يتم ذلك إلا إذا كان

هذا القرآن جاريًا على معهودهم وعادتهم في الخطاب والكلام، وهكذا كان القران وكانت السنة النبويَّة.

ومن هنا فإن:

- ✓ **معاني** كتاب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ موافِقَةٌ لكلام العرب.
- ✓ كما أن **أَلفَاظَه** مُوَافِق لألفاظ العرب.
- ✓ أن **تَرَاكِيبَه** موافِقَةٌ لتراكيب العرب.
- ✓ أن **أسَالِيبَه** موافِقَةٌ لأساليب العرب.

ولهذا كان لا يمكن لأحدٍ أن يَفهَمَ كلام الله وكلام رسوله ﷺ إلا من هذه الجهة؛ من جهة كونه عربيًّا في ألفاظِهِ وتراكيب تلك الألفاظ، ويكون عربيًّا في الأساليب وفي المعاني.

نصوص العلماء في أهمية التَّمكُّن من العربية:

الأول: يقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**على الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أُصولا وفروعًا أمران، أحدهما:**

ألَّا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيًّا أو كالعرب؛

في كونه عارفًا بلسان العرب، بالغًا فيه مبالغ العرب، أو مبالغ الأئمة المتَقدِّمين:

- كالخليل -الخليل ابن أحمد-.

- وسيبويه.
- والكسائي وغيرهم وأشباههم ومن داناهم.

وليس المراد أن يكون حافظًا كحفظهم، أو جامعًا كجمعهم، وإنما المراد: **أن يكون فهمُه عربيًّا في الجملة حتى يَفهَمَ مُراد الله ومُرَاد رسوله ﷺ**".

الثاني: تَقَدَّمَ قولُ الشافعي رحمه الله في عادات العرب ومعهودها في الكلام: أنها تخاطب بالشيء كذا، وعامًّا يُراد به العام، وعامًّا يُرَاد به الخصوص إلى آخره.

إذًا: العرب لها في كلامِها أساليب وعادات وطرق، وبلغة العرب وأساليبهم وعاداتهم في الكلام نَزَلَ القرآن، **فمن أراد أن يفهم القرآن لابد أن يكون مُتَمَكِّنًا من لُغَةِ العرب ومعرفة أساليبها**.

الثالث: قال الإمام الشافعي رحمه الله بعد أن ذَكَر جُمْلَةً من هذه العادات في الكلام العربِيّ وفِطرَتِه قال: "**فمن جَهِلَ هذا من لسانها** -فبلسانها نَزَلَ الكِتَاب وجاءت السنة- **فتكلَّف القول في علمها وتكَلَّف ما يجهل بعضه، ومن تكلَّف ما جهل، وما لم تُثبِتْه معرفتُه= كانت موافقتُه للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمود**".

إذًا؛ حتى ولو وَافَق الصواب فما دام أنه جاهلٌ فمُوافقَتُه للصواب غيرُ محمودة.

وهذا يَتمَاشَى مع قوله ﷺ: "من قال في القرآن بِرأيِه فأصاب فقد أَخطَأ"[1]؛ **فهو لم يُخطِئ في النتيجة، وإنما أخطأ في الوسيلة والطريقة**، ولذا فإنه وإن أصاب اليوم فقد يُخطِئ غدًا.

وبالتالي أخبر الإمام الشافعي رحمه الله أنه بخطئه غير معذور؛ لأنه أتى البيت من غير بابه ورَامَ الوصول إلى الغاية من غير طريقه.

الرابع: قال الحسن البصري رحمه الله: "**أَهلَكَتهُم العُجمَة**"؛ لأنهم يتأوَّلُون القرآن على غير تأويله، وهذا الذي أشار له الإمام الشافعي رحمه الله أنَّ جهل الناس كان بسبب تَركِهِم لغة العرب واتِّباعهم للغة أرسطوطاليس.

ومن هنا: لو فحصنا الفِرَق نجد أن أكثر زعماء هذه الفِرَق من الأَعَاجِم الذين حاولوا أن يُحاكِموا نصوص الشرع من لغة العرب

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (٣٦٥٢)، والترمذي في سننه (٢٩٥٠)، والنسائي في سننه (١١٤٢١)، وأحمد في مسنده (١٥١٣٦)، وقال الألباني في مشكاة المصابيح (١/٦٦): "صحيح".

إلى لغاتهم الخاصة، وإلى طرائِقِهم في الفهم وفي الكلام؛ فوَقَعُوا في الأخطاء الكثيرة.

وهذا يتكرَّر في كل زمن وفي كل عصر.

❖ دعوى وُجودِ ما لا يُفهم معناه في القرآن:

يجب التفريق بين أمرين:

- ما لا معنى له.
- ما لا يُفهَمُ له معنى.

أما الأول: ما لا معنى له.

فهذا لا يقول به مسلمٌ يَعي ما يقول لأمرين:

١- **أنه عبثٌ** يتنزَّه البارئ عنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يتكلم بكلام لا معنى له.

٢- **أنه ينافي وصف القرآن بالهدى والبيان**، ووصف القرآن بالهدى والشفاء والنور إلى غير ذلك.

أما الثاني: ما لا يُفهَم معناه؛ فهذا يحتمل احتمالين:

١- أن يكون مما لا يَفهَمُ أحدٌ معناه:

وهذا لا يجوز إلا على مذهب المُفوِّضَة.

وهم الذين يقولون: إن نصوص الصفات ونصوص المعاد وما يتعلق باليوم الآخر= لا يعلم أحد معناها؛ ولهذا يُفوِّضون معناها إلى الله ﷻ.

بل منهم من يُغَالي في ذلك ويمنع أن يكون الرسول ﷺ أو جبريل عليه السلام يَفهَمُ معنى هذه النصوص، **وهذه القاعدة مَسُوقَة لإبطال هذا المذهب.**

٢- أن يكون مما يَغيبُ فَهمُه عن بعض الناس:

وهذا لا يَضُرّ؛ بل هو مما فَطَرَ الله الناس عليه: أن يَعزُب عن فهم بعض الناس ما يُدرِكُه البعض الآخر، **وإلا فاليُسر والتسهيل والبيان عامٌّ في نصوص الشريعة**، ويتفاوت الناس في إدراك ذلك بين الراسخين في العلم ومن هم دونهم.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "ولسان العرب أوسَعُ الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، **ولا نَعلَمُه يُحيط بجميع علمه إنسانٌ غير نبي**".

والمعنى: أنه لا يمكن للإنسان أن يتفرَّد بمعرفة لسان العرب بجميع تفاصِيلِه ووُجُوهِه إلا أن يكون نبيًّا.

قال: "ولكنه لا يذهب منه شيء، على أن يكون موجودًا فيها من يَعرِفُه"، أي: لا يمكن أن يَفُوت على جميع العرب فَهْمُ ما نزل به القرآن الكريم من الآيات والألفاظ والمعاني.

فألفاظ التنزيل ومعانيه لا يُشتَرَط أن تكون جميعها معلومة عند كل أحد من أهل اللسان والخِطاب، بل قد يخفى على بعضهم بعضها، كما تقدم من تفاضُلهم في العلم والفهم، لكن لا يَخْرُج علم الشريعة عنهم حتى يكون موجودًا في عامَّتهم من يعلم به.

❖ تفسير وجه قصور فهم أهل اللسان والخطاب لبعض ألفاظ الوحي:

وما قَصُرت عنه فهوم أهل اللسان والخطاب من بعض

ألفاظ الكِتَاب والسنة ومعانيها فهو على ضربين:

الضرب الأول: ألَّا يتوقَّف فهمُ السِّيَاق ومعرفةُ المقصود عليه:

فهذا لا يضرُّ الجهل به؛ إذ العبرة بالمعنى التَّركِيبيِّ العام لا المعنى الإفرادي لكل لفظة.

مثال: ما حدث لعمر ﷺ في الأَبّ من قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]، فهو يُدرِكُ أن الأَبّ جزءٌ من النبات، لكن يريد أن يعرف معنى الأَبّ على وجه التحديد والتفصيل فيعرف:

- أيُّ نوعٍ من النبات هو؟
- في أيِّ بيئة يعيش؟
- وهل يُثمِر أو لا يثمر؟

إلى آخر ما هنالك من التفاصيل، فهذا لا يَضُرُّ الجهل به؛ ولهذا تجاوز ﷺ هذا الأمر.

قال ابن كثير ﷺ: "وهو محمول على أن عمر ﷺ أراد أن يَعرِف شَكل الأَبِّ وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية

يعلم أن الأَبَّ نوع من نبات الأرض؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ [عبس]".

الضرب الثاني: أن يتوقَّف فهمُ السِّيَاق ومعرفةُ المقصود عليه:

فهذا لابد من البحث فيه، وهذا لا يغيب عن عامة الناس خاصةً العلماء حتى يُدرِكُوا معناه، **فالشريعةُ قريبةُ الإدراك سهلةُ الفهم**؛ كما وصفها الله ﷻ، وذلك يَعُمُّ مسائلها الاعتقاديَّة والعمليَّة، ولا يُنكَر تفاضل المِدَاركُ في الجملة، أي: بعض الناس قد يكون أعلم أو أكثر فهمًا من بعض، فهذا أمر معروف.

الدَّرْسُ الخامِس عَشَر

قَوَاعَدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَال العَقدِيّ (٦)

تكملة القاعدة السابعة:

وهي القاعدة التي تقول: أن نصوص الكِتَاب والسنة مفهومةٌ لدى المخاطبين بها الذين يَتمَكَّنُون من معرفة اللسان العربي.

❖ التعريف بالمُفوِّضَة:

فهذه القاعدة هي للرد على من يسمى بالمُفوِّضَة.

والمُفوِّضَة هم: القائلون في نصوص صفات الله ﷻ والقدر والمعاد وكل ما يتعلق باليوم الآخر أنها ألفاظ لا تُعقل معانيها ولا يُعرف ما أراد الله ﷻ ورسوله ﷺ منها.

لكنها تُقرأ ألفاظًا لا معانيَ لها على جهة التَّعبُّد، ويُعلم أن لها معنى ولها تأويل لا يعلمه إلا الله.

فهذه النصوص –نصوص الصفات والتوحيد والقدر ونصوص المعاد– عندهم بمنزلة الحروف المقطعة في القرآن.

أمثلة على ذلك:

- قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم:١].
- وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿الٓمٓصٓ﴾[الأعراف:١].
- وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿الٓمٓ﴾[البقرة:١].

إلى غيرها من الحروف المقطعة.

فلو وَرَد عليهم منها ما وَرَد لم يعتقدوا فيها معنًى من المعاني، ويُنكِرون في نفس الوقت على من يتأَوَّلها.

فإذا سُئلوا: ماذا تفعلون؟

قالوا: نَكِلُ العلم بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فالله أعلم بمراده منها.

وقد يستدلون على مذهبهم هذا -وهو: جواز أن ينزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كلامًا يستأثر بمعناه دون خلقه- **بما يأتي:**

١- **ما تقدم من الحروف المقطعة** التي جاءت في أوائل بعض سور القرآن الكريم.

٢- **قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٥]**، فقالوا هذا تشبيهٌ بما لا يَعقِلُ المخاطب له معنًى؛ لأنه لا أحدَ رأى الشياطين ولا شَاهَدَ رُؤُوسَها، والآيةُ في التشبيه ووَصفِ الزَّقُّوم.

❖ أصول مذهب المُفوِّضَة:

وهؤلاء بَنَوا مذهبهم هذا على أصلين:

الأصل الأول: أن نصوص الصفات والمعاد وغيرها من الأمور المتشابهة التي استَأثَرَ اللهُ بعِلمِها.

الأصل الثاني: أن هذا المتشابه لا يعلمُ أحدٌ تأويلَه إلا الله، ويستدلون بآية آل عمران.

❖ الردُّ على مذهب المُفوِّضَة:

والجواب على هذا المذهب يكون كالتالي:

الجواب الأول: أما ما استدلوا به من الحروف المقطعة، فلا شك أنه قد وقع الخلاف فيها، ومَدَارُه على مذهبين:

الأول: أنها مما استَأثَرَ اللهُ بعِلمِه، وهذا حُكِيَ عن جماعة من الصَّحَابَة ومن بعدهم من العلماء.

الثاني: أنها مما يُعلم معناه، لكن اختلفوا في المراد بها:

فإما أنها أسماءَ أو فواتحَ للسور، أو أنها حروف من حروف المعجم= استُغْنِي بذكر بعضها في أوائل السور عن ذكر البَوَاقِي.

الحكمة من إيراد الحروف المقطعة في القرآن:

وقد تكلم بعض العلماء في الحكمة التي اقتضت إيراد ذلك:

- **منهم من يقول**: أن الله ﷻ ابتدأ بها لتَفتحَ أسماعَ المشركين، حتى إذا أصغوا أسماعهم تَلَا عليهم المؤَلَّف منها، أي: من هذه الحروف.
- **وقد قيل**: لو كانت هذه الحروف لم تَجْرِ على عادة العرب لأُنكِر ذلك على النبي ﷺ، لكن لم يُرْوَ عن العرب؛ لا أهل مكة ولا غيرهم أنهم= أنكروا على النبي ﷺ وُرُود هذه الحروف في بداية السور، **ومعنى ذلك أنها جَرَت على عادتهم في الكلام وفي الخطاب.**
- **وقيل**: أن فيها إظهارُ عجزِ الخلق عن معارضة القرآن، فكأن الله ﷻ يقول: هذا القران مُؤَلَّف من نفس حُرُوفِكم، ومع ذلك تَعجَزُون عن الإتيان بمثله أو بعشر سور منه، أو نحو ذلك من أساليب التحدي.
- **ومن يقول**: إنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

وهي أيضا مع ذلك حروف يسيرة:

١. لا تُخرِج القرآن الكريم عن كونه كلامًا مُبِينًا ونورًا هاديًا، وأنه مفهومٌ لدى المخاطبين به.

٢. ولا يتعلق بها تكليفٌ سوى الإيمان بها.

٣. ولا يتوقَّف على العلم بمعانيها فَهمُ شيءٍ من القرآن الكريم مما قُصِد به التكليف، لا في باب الأخبار والعقائد، ولا في باب الأحكام العملية.

الجواب الثاني: أما استشهادهم بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٥]، ونحوه من الأمثلة المضروبة، **فهو مَثَلٌ في الاستِقبَاح جرى على عادة العرب في ضرب الأمثال مما يُتَخَيَّل قبيحًا**، ورؤوس الشياطين استَقَرَّ قُبحُها في الأنفس، فشَبَّه الله بها الزَّقوم في النار.

ولو كان شيئًا غير معروفٍ لاعتَرَض العرب على النبي ﷺ: كيف يُورِد لهم هذا التشبيه الذي لا يعرفونه في عادتهم ولا في أفعالهم؟

ولكن لم يَثبُت أنهم اعترضوا على النبي ﷺ في ذلك.

الجواب الثالث: بيانُ امتناع المقدِّمَتَين اللَّتَين بنوا عليها مذهبهم.

- الرد على المقدمة الأولى: وهي دعوى أن نصوص الصفات والمعاد من المتشابه.

فهذه المقدمة باطلة؛ لأن المحكمات في آيات القرآن الكريم أكثر من المتشابهات.

الدليل: دلَّ على ذلك الآيةُ التي استشهدوا بها: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[آل عمران:٧]، ووجه ذلك:

الوجه الأول: أنها وُصِفت بأُمِّ الكِتَاب، وأُمُّ الكِتَاب: أصلُه وأكثرُه وعامَّتُه، وأما المتشابهات فهي دون المحكمات في الكثرة فهي الأقل.

الوجه الثاني: أن هذا كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي أرادَه هدايةً وإرشادًا للناس ومُخرِجًا لهم من الظلمات إلى النور وحجةً عليهم، فكيف يكون مع ذلك كلِّه أكثَرُهُ مُتَشابهًا لا يعقل له معنى؟! فهذا الشيء يتنافى مع العقل.

ومن المعلوم أن نصوص الصفات والمعاد هي أكثر ما ذُكِر في القرآن الكريم؛ فلا تكاد تخلو منها سورة، فهي متعددة الذكر

متنوعة الأسلوب، فَجَعْلُ ذلك كله من المتشابه الذي لا يعلم أحد معناه= يُعتَبر مكابرةً وعنادًا.

الوجه الثالث: أن هذا المذهب خلاف ما عليه السلف والأئمة.

قال ابن تيمية رحمه الله: "فإني ما أعلم عن أَحدٍ من سلف الأُمَّة ولا من أئمتها، لا أَحمدَ ولا غيره: أنه جعل ذلك من المتشابه الدَّاخِل في هذه الآية، وَنَفَى أن يَعلَم أحدٌ معناه، وجعلوا أسماءَ الله وصفاته بمنزلة الكلامِ الأعجميّ الذي لا يُفهم، ولا قالوا: إن الله يُنزِّل كلامًا لا يَفهَمُ أحدٌ معناه"، **فالسلف بريئون من ذلك.**

- **الردُّ على المقدمة الثانية: وهي: أن المتشابه لا يَعلَم تأويله إلا الله عز وجل فقط.**

وهذا باطل من وجهين:

أولًا: يجب التفريق بين مقولتين:

- المتشابِه لا يعلم تأويله إلا الله، وهذا ما ورد في القرآن.
- المتشابه لا يعلم معناه إلا الله.

فالمقولة الأولى: أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله= صحيحة.

والمراد بالتأويل هنا هو: الحقيقة التي يَؤُولُ إليها الأمر، كما هو استعمال القرآن الكريم، مثل قول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

والمقولة الثانية: أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله= باطلة.

وهؤلاء المخالفون يطلقون العبارة الأولى، ويريدون بها المعنى الثاني، أي: يريدون أن المتشابه لا يعلم أحد معناه إلا الله، ويستدلون على ذلك بآية آل عمران التي ذكرناها، **وهذا من التلبيس.**

معاني التأويل وموقف المُفَوِّضَة:

لأن التأويل الوارد في الآية يُطلَق ويُرَادُ به أحد المعاني الثلاث:

المعنى الأول:

الحقيقة التي يؤول إليها الأمر، وهو: استعمال القرآن الكريم؛ فتأويل الخبر هو: حُدوث المخبَر به، وتأويل الأمر هو: حدوث المأمور به.

أمثلة:

المثال الأول: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، وأنه فَصَّل الكِتَاب؛ فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه فَصَّل الكِتَاب، وتفصيله هو بيانه وتمييزه؛ بحيث لا يشتبه على أحد.

ثم قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، أي: هل ينتظرون إلا تأويله؟

وإنما ذلك المجيء ما أخبر الله بوقوعه من القيامة وأشراطها وما في البعث والنشور والحساب والميزان، فكل ما أخبر الله به أنه سيأتي فسيأتي، **ووقوع ذلك وحُدُوثه يوم القيامة هو تأويل ما أخبر الله به في الدنيا.**

فهو أخبرنا بهذه الأمور في الدنيا، وهي ستقع في الآخرة وسيراها الناس.

وهنا جانبان:

الجانب الأول: وقته وقدره وصفته التي هو عليها، فهذا لا يعلمُه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الجانب الثاني: أما المعاني فهي معلومة، فما أخبرنا الله به فهو معلومُ المعنى، وإلا يكون الله ﷻ كَلَّفَنا ما لا نُطِيق؛ أن نفهم شيئًا لا معنى له.

المثال الثاني: قول عائشة ﵂: كان النبي ﷺ يُكثِر أن يقول في ركوعه وسجوده: **"سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي"**، قالت عائشة: يتأوَّل القرآن. وهو قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:٣]"[1]، فهو يُفسِّر القرآن وهذه من معاني التأويل في لغة القرآن.

المعنى الثاني:

التأويل بمعنى التفسير.

فمن معاني التأويل التفسير والبيان، وهو اصطلاح السلف من أهل التفسير.

---

[1] متفق عليه، أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٩٦٨).

المعنى الثالث:

وهو الذي يستخدمونه هؤلاء الفرق، التأويل الذي هو: **صَرْفُ الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر**، لكن قال العلماء: "**لدليل يقترن به**"، أي: بشرط أن يكون هناك دليل يقترن به.

وهذا هو اصطلاح المتأخرين.

إذًا؛ يجب علينا أن نصرف الكلام عن ظاهره المتبادر إلى معنى آخر إذا اقترن به دليل.

وهذا الدليل قد يكون:

- **نصًّا**، والنص قد يكون مقترنًا بالنص أو في نصٍّ آخر.
- **أو قد يكون دليلًا عقليًّا قويًّا** إذا كان الدليل الشرعي يحتمل أكثر من معنى.

الخلاصة:

التأويل في آية آل عمران يكون بأحد المعاني التالية:

المعنى الأول: الحقيقة التي يؤُول إليها الأمر؛ إذا كان الأمر يختص بعلم الله ﷻ؛ ولهذا كانت قراءة الجمهور: الوقف عند لفظ الجلالة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، فالتأويل هنا بمعنى: الحقائق والكيفيات التي لا يعلمها إلا الله.

المعنى الثاني: التفسير؛ وعليه يُحمَل قراءة غيرهم بالوصل؛ فيعطفون الراسخين في العلم على لفظ الجلالة، فيكون المراد: أن معنى هذه النصوص يعلمها الله ﷻ ويعلمها الراسخون في العلم.

فمن ترك الوقف من العلماء كان التأويل عنده بمعنى: التفسير والبيان.

وهذا يَقدِر عليه الراسخون في العلم، فهم يعلَمُون تأويله؛ بمعنى: تفسير ما أنزله الله ﷻ.

مثال: قول ابن عباس عن نفسه رضي الله عنه: "أنا من الذين يعلمون تأويله"، وذلك ببركة دعاء النبي ﷺ أن يُعلِّمه الله ﷻ التأويل ويفقهه في الدين.

مثال ثاني: ثبت أن الصَّحَابَة ومن بعدَهم تَكَلَّموا في غالب آيِ القرآن الكريم، فهذا مجاهد إمام المفَسِّرين يقول رحمه الله: "عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته؛ أُوقِفُه عند كلِّ آية أَسألُه عنها"، وقال غير ذلك.

وأما قول النبي ﷺ: **"من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"**[١]، أي: يُسمَح للناس أن يُفسِّروا القرآن ويفهموه لكن بعيدًا عن الآراء الخاطئة وعن الأساليب غير الصحيحة.

إذًا؛ يجوز لمن يملك ناصية العلم أن يُفسِّر القرآن؛ ولهذا مُنِع من الكذب عليه.

أكثر القرآن خبرٌ عن الله ولا يمكن أن يكون من المتشابه:

ولهذا نقول: سائر القرآن خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته، وعن اليوم الآخر والجنة والنار، والقصص وبيان عاقبة الإيمان وعاقبة أهل الكفر، فإن كان هذا كله من المتشابه وهو عندهم لا يعلم أحد معناه، فيكون بذلك عندهم سائر القرآن لا يعرف أحد المعنى! **لا الرسول ﷺ ولا أحد من الأمة، وهذا يُعتبَر مكابرة ظاهرة.**

فمن المحَالِ أن يُنزِّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كتابًا أو أن يتكلم رسوله ﷺ بكلام، ويَقصَد بهذا الكِتَاب وهذا الكلام أن يكون هداية

---

[١] أخرجه أبو داود في سننه (٣٦٥٢)، والترمذي في سننه (٢٩٥٠)، والنسائي في سننه (١١٤٢١)، وأحمد في مسنده (١٥١٣٦)، وقال الألباني في مشكاة المصابيح (٦٦/١): "صحيح".

للخلق -وهذا هو الواقع- ثم مع ذلك يبقى هذا الكِتَاب -وهذا الكلام في أعظم الأمور وأشدِّها ضرورة، أي: العقائد- مجهولَ المعنى بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يَفهَمُ أحدٌ معناها!

فهذا من السَّفَه الذي تَأبَاه حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واصفًا كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

اللوازم الباطلة لمذهب المُفوِّضَة:

يلزم من هذا المذهب لوازم باطلة منها:

١- **يلزم أن الصَّحَابَة والسلف لم يفهموا هذه النصوص**، بل هم جاهلون بها أعظم الجهل، خاصة في مسائل أصول الدين.

٢- **أن يكون عمدة الدين وزبدة الرسالة المحمدية التي بها حياة النفوس والقلوب= لا يعلم أحد من البشر معناها**؛ لا الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيَظَلُّ هذا الكِتَاب مجهولًا، لا يعرفه أحد حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٣- **أن يكون حال الناس في هذا الباب -باب العقائد- قبل الرسالة وبعد الرسالة واحدًا**؛ أي: ما استفادوا شيئًا، بل هذا من باب التكليف بما لا يُطاق.

٤- **أن يكون كلُّ من تَكلَّم في شرح معاني هذه العقائد قد افترى على الله الكذب وتَمَنَّى على الله الأماني**، ويكون الله ﷻ -المُنَزَّه عن العبث- قد أنزل كلامًا يريد به هداية الناس، ولكن لا أحدَ من الناس يفهم هذا الكلام.

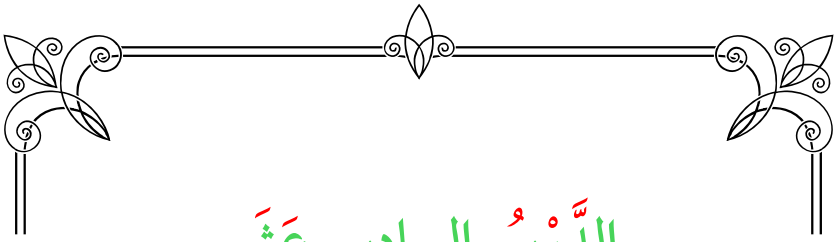

الدَّرْسُ السادِس عَشَر

قَوَاعَدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَال العَقدِيّ

(٧)

القاعدة الثامنة: حجِّيةُ فهم السلف الصالح لمعاني نصوص الكِتَاب والسنة.

السلف من الصَّحَابَة والتابعين ومن تبعهم هم أقرب الناس عصرًا من النبوة، وبالتالي فهم:

- أعمق الناس صلة بكتاب الله ﷻ وبكلام رسوله ﷺ.
- وهم أصح لسانًا وأفصح بيانًا.

فيكون فهمهم لهذه النصوص خاصةً ما يتعلق منها بالعقائد وقضايا الإيمان حجةً على من بعدهم، وخاصة إذا علمنا أن ما يتعلق بالعقائد لا يَنبني على أمور اجتهاديَّة ولا ظنيَّة، وإنما مصدره الوحيد هو: الكِتَاب والسنة.

خيرية الصَّحَابَة وفضلهم على سائر الأمة:

ذكر الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الموافقات أن **من أَنفَع طرقِ العلم المُوصِلة إلى غاية التَّحقيق والتَّدقيق أن يؤخذ عن أهله المتحقِّقين به على الكمال والتمام**، وذَكَر أنَّ من علامات هؤلاء العلماء: أَنْ يكون ممن رَبَّاه الشيوخ في ذلك العلم؛ لأخذه عنهم وملازمته لهم فهو جدير بأن يتَّصف بما اتَّصفوا به من ذلك.

وأن أوَّلَ ذلك ملازمةً هم: الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لرسول الله ﷺ وأخذِهِم بأقواله وأفعاله وأحواله، واعتمادهم على ما يَرِد منه كائنًا ما كان وعلى أيِّ وجه صدر، فهم:

- قد فَهِموا مغزى ما أراد به ﷺ.
- حتى علموا وتَيقَّنوا أنه الحق الذي لا يُعارَض.
- وأنه الحكمة التي لا ينكسر قانونها ولا يَحُومُ النقص حول حماها.

وإنما ذلك بسبب كثرة الملازمة وشدة المثابرة.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**وصار مثل ذلك أصلًا لمن بعدهم،** فالتزم التابعون في الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ سيرَتَهم مع النبي ﷺ حتى فَقِهُوا ونالوا ذروة الكمال في العلوم الشرعية".

ففضيلة الصحبة التي اختص بها الصَّحَابَة رضي الله عنهم لا تعدلها فضيلة عند غيرهم من الناس، **وهم صفوة مختارة وثُلَّة مُجتَباة.**

شواهد فضل الصَّحَابَة على سائر الأمة:

وهناك شواهد كثيرة لذلك منها:

- قول النبي ﷺ: "**إن الله اختار أصحابي على الثَّقلَين سوى النبيين والمرسلين**"[١]، وهذه الخيريَّة التي اختصَّ بها الصَّحَابَة لا شك أنها في كمال العلم وتمام الفهم عن الله ورسوله ﷺ، وصحه الدين والاستقامة وصدق العزم في الدعوة إلى الله وإلى شرعه.
- قال ابن مسعود رضي الله عنه: "**إن الله نظر في قلوب العباد=** فوَجَدَ قلبَ محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته.

ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ= فوَجَدَ قلوب أصحابه خير قلوب العباد؛ فجعلهم وُزراء نبيِّه

---

[١] أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٣٠)، والترمذي في سننه (٣٨٦٢)، وأحمد في مسنده (١٦١٦٢)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/١٨): "ضعيف جدًّا".

يُقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حَسَنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئًا فهو عند الله سيء".

- وقد أثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال الإمام الشافعي رحمه الله على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسوله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم.
- وهم الذين أدّوا إلينا سنن رسول الله ﷺ وشاهَدُوهُ الوحي ينزِل عليه؛ فعَلِمُوا ما أراد رسول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا، وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سننه ما عرفنا وما جهلنا، يقول الشافعي رحمه الله: "وهم فوقَنا في كلِّ علم واجتهاد ووَرَعٍ وعقل، وأَمرٍ استُدرِكَ به علمٌ واستُنبِطَ به، وآراؤُهم لنا أَحمَد وأَوْلى بنا من رأينا عند أنفسنا".
- يقول ابن تيمية رحمه الله: "وكلُّ مَن لَه لسان صدق من مشهورٍ بعلم أو دين= **مُعترَفٌ بأن خير هذه الأمة هم: الصَّحَابَة.**

فالصَّحَابَة:

✓ أفقه الناس.

✔ وأبَرُّهم قلوبًا.

✔ وأعمقهم علمًا.

✔ وأقلُّهم تكلفًا.

✔ وأصحُّهم قصودًا.

✔ وأكملهم فطرةً.

✔ وأتمُّهم إدراكًا.

✔ وأصفاهم أذهانًا.

لأنهم شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل، وفهموا مقاصد الرسول ﷺ، وليس من سَمِعَ وعَلِم ورأى حالَ المتكلم، كمن كان غائبًا لم يرَ ولم يسمع، أو سَمِع وعلم لكن بواسطةٍ أو وسائط كثيرة".

وعليه: فالرُّجوعُ إلى ما كان عليه الصَّحَابَة رضي الله عنهم **من الدين والعلم هو المُتَعَيِّن على من جاء بعدهم ممن لم يَشْرَكهُم في هذه الفضيلة –فضيلة الصُّحبة–.**

ومن هنا: فإن أهل السنة والحديث والجماعة المشتغلين بعلم الرسول ﷺ وعاء بطانته من أصحابه وحوارِيه هم: **أعلم الناس بهذا**

الموروث؛ فتكون أحوالهم في الديانة علمًا وفهمًا وعملًا واعتقادًا لها وَزنُهَا واعتبَارُهَا في فهم مراد الله ﷻ ورسوله ﷺ.

شواهد حجِّية فهم الصَّحَابَة:

ولهذا كان الأخذ للفتاوى الصَّحابيَّة والآثار السَّلفيَّة أَوْلى من آراء المتأخرين وفتاويهم، وإن أقربها إلى الصواب بحسب قرب أهلها من عصر النبوة؛ ففتاوى الصَّحَابَة أَوْلى أن يُؤخَذ بها من فتاوى التابعين، وهكذا فتاوى التابعين أَوْلى من فتاوى تابعيهم، وهَلُمَّ جرًّا.

وذلك لأسبابٍ كثيرة من أهمِّها:

أولًا: **أن هذا القرآن الكريم الذي نزل بلسان العرب على معهودهم في الكلام وعادتهم في الخطاب** -كما سبق بيانه-؛ فكل من كان من لسان العرب متمكنًا= كان للقران أشدَّ فهمًا وأحسن إدراكًا، وبالتالي **لا يُعلَم أحد أفصح لسانًا ولا أشدُّ بيانًا ولا أقوى خطابًا من أهل القرون الأولى المفضلة، وأَوْلَاهم في هذا الفضل هم أصحاب رسول الله ﷺ**، وبالتالي لا يكون في الأمة من بعد القرون الأُولَى أحدٌ أفصح منهم لسانًا، ومن ثَمَّ فلا يقدر أحدٌ أن يفهم القرآن من هذه الجهة -من جهة كونه عربيًّا- أفضلَ ولا أحسنَ من

أصحاب القرون الأولى، **بل كل من جاء بعدهم فهو دونهم في الفصاحة والبيان وفي الفهم والإدراك؛ عقلًا وحسًّا.**

أثر العُجمة على الضلال في فهم النصوص:

وما تصانيفُ العربية وغريبُها ومعاجمُها والتي ظهرت في العصور المتأخرة وهي تزداد كثرةً وتنوُّعًا كلَّمَا تأخَّرَ الزمان إلا: شَاهِدٌ على صدق على ما قلنا وقرَّرنا.

ولهذا كانت **أول بدعة ظهرت في المسلمين: بسبب العجمة**، ومن الشواهد على ذلك:

- قال الأوزاعي رحمه الله: "أول من نطق في القَدَر رجلٌ من أهل العراق يقال له: سَوسَن أو سَنسَوَيْه -كما ورد في بعض الروايات- وأنه كان نصرانيًّا فأسلم ثم تَنَصَّر، فأخذ عنه مَعبَد الجهني وأخذ غَيْلَان عن معبد"؛ ولهذا قيل: "**أهلكتهم العُجمة**"، أي: بسبب عُجمَة اللسان وعُجمَة التفكير.
- قال الشافعي رحمه الله: "**ما جَهِل الناس ولا اختلفوا إلا لترَكِهم لسان العرب ومَيلِهم إلى لسان أرسطوطاليس**"، أي: أرسطو.

- وقال السيوطي ﷺ: "وقد وجدتُ السلف قبل الشافعي أشاروا إلى ما أشار إليه من أن سبب الابتداع هو: الجهل بلسان العرب".

ثانيًا: أن الصَّحَابَة ﷺ والسلف أعلم الناس بتفسير القرآن الكريم وذلك لأمور:

- أنهم مُتمَكِّنون من لغة القرآن.
- أن فهمُهُم له أرسخ.
- وإدراكُهُم بمعانيه أعمق.
- إضافةً إلى شِدَّة حرصهم على حفظه وتعلم معانيه، أي: القرآن الكريم.
- وحرصُهُم على معرفة تفسيره من النبي ﷺ مباشرة في الأمور التي أَشكَلَت عليهم أو أن يتعلَّمُوه من بعضهم البعض.

وبالتالي: فَهُم فَوقَ غيرِهم في العلم والإدراك والفهم.

ولهذا كان من أحسن طرق التفسير:

- أن يُفَسَّر القرآن بعضه ببعض.
- ثم بالسنة.
- ثم بأقوال الصَّحَابَة والتابعين على ما مَرَّ بيانه.

وطائفةٌ من أهل الحديث جَعَلتْ تفسير الصحابي رضي الله عنه في حكم المرفوع، خاصةً في الأمور الاعتقاديَّة التي لا مجال للرأي فيها، فلابد أن يكون الصحابي رضي الله عنه قد سَمِع فيها من النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا.

طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم:

وعليه نقول: إنَّ طريقة السلف رحمهم الله في فهم القرآن وما جاء به القرآن من عقائد وشرائع، هي أسلم وأعلم وأحكم.

وهذا بعكس ما يقول بعض المتأخرين من المتكلمين: إنَّ طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، فيفرِّقون بين طريقتهم وطريقة السلف، ويجعلون السَّلامة هي طريقة السلف، أما طريقتهم فهي أعلم وأحكم.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "ومن هنا قال من النُّفَاة: إن طريقة الخلف أعلم وأحكم، وطريقة السلف أسلم؛ لأنه ظن أن طريقة الخلف فيها معرفة النفي الذي هو عندهم الحق، وفيها طلبُ التأويل لمعاني نصوص الإثبات؛ **فكان في هذا عندهم علمٌ بمعقول وتأويلٌ للمنقول**".

أي: يعتبرون أنفسهم أعلم بالمعقول، وأعلم بتأويل المنقول.

وقال: "وليس في هذه الطريقة التي ظنُّوها طريقة السلف غير التَّمسُّك بمدلول النصوص، وهذه عندهم من إحكام تلك الطريق – أي: طريقتهم–.

ومذهب السلف عندهم هو: عدم النظر في فَهْمِ النصوص لتعارض الاحتمالات.

وبالتالي يعتبرون السلف قد آثروا السلامة، وفوَّضوا معاني هذه النصوص!".

فَهُم يَصِفون السلف بأنهم كانوا مُفَوِّضين لنصوص الكِتَاب والسنة؛ ولهذا يقول ابن تيمية ﷺ: "فلو كان قد بُيِّن أو تَبَيَّن لهذا المتكلم أو هذا المتهم للسلف وأمثاله: **أن طريقة السلف إنما هي:**

- ✓إثبات ما دلت عليه نصوص الكِتَاب والسنة من الصفات.
- ✓وفَهْمِ ما دلت عليه.
- ✓وتَدَّبُرِه وعقلِه.
- ✓وإبطال طريقة النُّفَاة، وبيان مخالفتها لصريح المعقول وصحيح المنقول.

فطريقة من خالفهم خالفتِ العقل وخالفتِ الشرع، ولو فُعِلَ ذلك لَعُلِم أن طريقة السلف أعلم وأحكم وأسلم، وبالتالي هي

أهدى إلى الطريق الأقوم، وأن طريقة النُّفَاة المنافية لما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به وأخبر به رسوله ﷺ هي طريقة باطلةٌ شرعًا وعقلًا.

وأن من جعل طريقة السلف في عدم العلم بمعاني الآيات، وعدم إثبات ما تضمنته من الصفات= **فقد قال غير الحق إما عمدًا وإما خطأً**:

- وهؤلاء النُّفَاة هم كذَّابون إما عمدًا وإما خطأً، كذَّابون **على الله وعلى رسوله وعلى سلف الأمة وأئمتها**.
- كما أنهم كذَّابون إما عمدًا أو خطأً **على عقول الناس**؛ لأنهم يُلَبِّسون على الناس وعلى ما نصَبَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الأدلة العقليَّة والبراهين اليَقينيَّة"

انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

❖ خلاصة القاعدة الثامنة:

فالمقصود في هذه القاعدة: بيان **أن العَهدَ كلَّمَا كان أقرب إلى عهد النبوة كان رجال ذلك العَهدِ أكثرُ فهمًا لقصد الرسول** ﷺ، وكانوا أعظمُ عُمقًا في إدراك معاني النصوص؛ وذلك لأمور:

- ما خُصُّوا به من فضيلة الاختيار والاصطفاء والاجتباء.
- ولمعرفتهم لغة التخاطب.

- ولكثرة صُحبَتِهم واجتماعهم بصاحب الرسالة ﷺ، أو من نقل عنه من أصحابه.

وبهذا نكون قد انتهينا من بيان هذه القاعدة وغيرها من القواعد التي تُعِين على أمور منها:

- ✓ التعامل مع نصوص الكِتَاب والسنة.
- ✓ تُمَيِّز هذه الأمة عن غيرها من الأُمَمِ الضَّالة.
- ✓ تُمَيِّز المتَّبعين لأهل السنة والسلف الصالح عن غيرهم من الملل والنحل المنحرفة.

نسأل الله التوفيق والرَّشاد، وصلى الله وسَلَّم وبارك على سيدنا محمد ﷺ.

فهرس الـموضوعــات

مَنهَج الاستِدلَال العَقدِيّ ٩

❖أهمية الوقوف عند مَنهَج الاستِدلَال: ٩
تطور الفِرَق وانتشار بدعتهم: ١٠
معرفة صفات الفرقة الناجية: ١٤
مفهوم المَنهَج: ١٧
اهتمام المسلمين بالمَنهَج: ١٧
❖أهمية المَنهَج لضبط العلوم: ٢٣
خصائص مَنهَج أهل السنة في تقرير مسائل الاعتِقَاد: ٢٣

مَصَادِر الاستِدلَال العَقدِيّ ٣٠

المصدر الأول: القرآن الكريم (١) ٣٠

❖المقصود بمَنهَج مَصَادِر الاستِدلَال العَقدِيّ: ٣٠
أولًا: المَصَادِر الأساسيّة: ٣١
❖المصدر الأول: القرآن الكريم: ٣١
أبرز مسائل المصدر الأول: ٣٢
المسألة الأولى: إثبات صحة نسبة القرآن الكريم إلى الله ﷻ: ٣٢
أدلة إعجاز القرآن البلغاء والفصحاء: ٣٥

المصدر الأول: القرآن الكريم (٢) ٤٤

المسألة الثانية: حفظ القرآن الكريم: ٤٤
أولًا: حفظ القرآن الكريم في عهد النبوَّة: ٤٤
ثانيًا: حفظ القرآن الكريم في عهد الصَّحَابَة: ٤٧
المسألة الثالثة: سلامةُ القرآن الكريم من التَّحريف: ٤٨
المسألة الرابعة والأخيرة: المَنهَج في تفسير النَّصّ القُرآنيّ: ٥٠
المَنهَج الأول: طلبُ معرفةِ معنى النَّصّ من القرآن نفسه: ٥٠
المَنهَج الثاني: طلبُ معرفة النَّصّ القُرآنيّ من سنة النبي ﷺ: ٥٥
المَنهَج الثالث: طلب معرفة النَّصّ القُرآنيّ من أقوال الصَّحَابَة ﷺ: ٥٧
المَنهَج الرابع: طلبُ النَّصّ القُرآنيّ من أقوال التابعين. ٥٨
الخلاصة: القرآن مقدمةُ المَصَادِر في مسائل الاعتِقَاد: ٦٠

المصدر الثاني: السُّنة النبوية (١) ٦١

مسائل المصدر الثاني: ٦١
المسألة الأولى: أن السُّنَّة وحي من عند الله ﷻ: ٦١
طُرُق الوحي بالسُّنَّة: ٦٢
الأدلة على أن السُّنَّة وحيٌ من الله ﷻ: ٦٣
دلالة القرآن على أن السُّنَّة وحي: ٦٣
الدلالة السنيَّة على أن السُّنَّة من الوحي: ٦٥
دلالة الإجماع على أن السُّنَّة من الوحي: ٦٦
دلالة النَّظَر الصَّحِيح على أن السُّنَّة من الوحي: ٦٦
المسألة الثانية: أن السُّنَّة محفوظةٌ؛ لأنه وحي. ٦٧
وسائل حفظ السُّنَّة: ٦٨
أولًا: أثر النبي ﷺ في حفظ السُّنَّة: ٦٩
ثانيًا: أثر الصَّحَابَة ﷺ في حفظ السُّنَّة: ٧٢
ثالثًا: أثر التابعين ومن بعدهم من أهل العلم في حفظ السُّنَّة: ٧٧
مميِّزات مرحلة التابعين لحفظ السُّنَّة: ٧٨

المصدر الثاني: السُّنة النبوية (٢) ٨١

المسألة الثالثة: حجِّيَّة السُّنَّة النبوية: ٨١

الأدلة على حجّيَّة السُّنَّة: ٨١
أولًا: الدليل على حجّيَّة السُّنَّة من القرآن الكريم: ٨١
ثانيًا: الأدلة السُّنيَّة على حجّيَّة السُّنَّة: ٨٥
ثالثًا: دلالة الإجمَاع على حجّيَّة السُّنَّة:.. ٨٦
رابعًا: دلالة النَّظَر الصَّحِيح على حجّيَّة السُّنَّة:.. ٨٧
إفادة خبر الواحد العلمَ والحجة:.. ٨٨
أدلة إفادة الخبر الصحيح المحتف بالقرائن العلم، منها: ٩٠
مسألة الاحتجاج بخبر الواحد في مسائل الاعتِقَاد:................................ ٩٢
مذهب المتكلمين من المعتزلة وغيرهم:.. ٩٢
مذهب السلف في الاحتجاج بخبر الواحد: ٩٤
الخلاصة: ٩٧

المصدر الثالث: الإجمَاع ٩٨

مسائل الإجمَاع في العقيدة هي: ٩٨
المسألة الأولى: تعريف الإجمَاع: ٩٨
المسألة الثانية: حجّيَّة الإجمَاع:.. ٩٩
الاستدلال على حجّيَّة الإجمَاع من القرآن: ٩٩
الاستدلال على حجّيَّة الإجمَاع من السُّنَّة:.. ١٠١
دلالة النَّظَر الصَّحِيح على حجّيَّة الإجمَاع: ١٠٣
المسألة الثالثة: فائدة الإجمَاع في مسائل الاعتِقَاد: ١٠٤
الخلاصة: ١٠٥

المَصَادِر الثانويّة ١٠٧

المصدر الأول: العقل (١).. ١٠٧

ثانيًا: المَصَادِر الثانويّة: ١٠٧
❖المصدر الأول: العقل:.. ١٠٨
مسائل مصدر العقل في الاستِدلَال العَقدِيّ:.. ١٠٨
المسألة الأولى: تعريف العقل:.. ١٠٨

المسألة الثانية: منزلة العقل في الإسلام: ١١٢

المصدر الأول: العقل (٢)..... ١٢٤

المسألة الثالثة: العقل أحد مَصَادِر المعرفة: ١٢٤
أقسام العلوم من حيث إدراك العقل لها: ١٢٩
القسم الأول: العلوم الضروريَّة: ١٣٠
القسم الثاني: العلوم النظريَّة الكسبيَّة: ١٣١
القسم الثالث: العلوم الممتنعة: ١٣٣
المسألة الرابعة والأخيرة: موقع العقل من المطالب الاعتِقَادية: ١٣٤

الفطرة ١٣٩

❖المصدر الثاني: الفطرة: ١٣٩
وأهم مسائل مصدر الفطرة في الاستِدلَال العَقدِيّ: ١٣٩
المسألة الأولى: معنى الفطرة: ١٣٩
اللبن شراب الفطرة: ١٤٢
المسألة الثانية: فِطرِيَّةُ المَعرِفَة: ١٤٦
منكرو فطريَّة المَعرِفة: ١٤٧
علاجُ من فَسُدَت فطرته بالشُّبُهات: ١٥٠
دلالة الفطرة على توحيد الربوبية: ١٥٣
دلالةُ الفطرةِ على توحيد الأسماء والصفات: ١٥٦
دلالةُ الفِطرَةِ على تَوحِيد الأُلوهيَّة: ١٥٧

قَوَاعِدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَال العَقدِيّ (١) ١٥٨

القاعدة الأولى: الإيمان بجميع نصوص الكِتَاب والسُّنَّة. ١٥٨
❖أنواع الإيمان بالنصوص: ١٦٠
تطبيقات عملية للقاعدة الأولى: ١٦٧

قَوَاعِدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَال العَقدِيّ (٢) ١٧٣

❖فوائد الالتزام بالقاعدة الأولى (السابقة): ١٧٣
القاعدة الثانية: اشتمالُ الكِتَاب والسُّنَّة على جميع مسائل العقيدة:......... ١٧٨
مسألة تقسيم الدين إلى أصول وفروع: ١٧٩
أحوال تعلُّق العلوم بالسَّمع والعقل:... ١٨٠
كفاية الوحي في العلوم الإلهيَّة والعقديَّة: ١٨٢
أوجه بيان النبي ﷺ لمسائل العقائد: ١٨٤
أدلة كفاية الوحي في أمور الدين والدنيا:... ١٨٥
كمال الدين وكفاية الوحي: ١٨٨
كمال الدين حتى في باب الآداب: ١٩٠
موقفُ من يدَّعي عدم كفاية نصوص الكِتَاب والسُّنَّة:............................ ١٩١

قَوَاعِدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَال العَقدِيّ (٣) ١٩٤

القاعدة الثالثة: لا نسخ في الأخبار ولا في أصول الدين:..................... ١٩٤
تعريف النسخ ومواضعه: ١٩٥
❖النسخ يكون في الأوامر لا في الأخبار: ١٩٦
اختلاف مفهوم النسخ عند بعض السلف: ٢٠٠
القاعدة الرابعة: رَدُّ التنازع إلى الكِتَاب والسُّنَّة:.................................. ٢٠١
أصناف من خالف هذه القاعدة:.. ٢٠٤

قَوَاعِدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَال العَقدِيّ (٤) ٢٠٧

القاعدة الخامسة: دَرْءُ التَّعَارُض بين نصُوص الكِتَاب والسُّنَّة: ٢٠٧
❖أسباب التَّعَارُض بين النصوص: ٢١٠
❖كيف ندفع التَّعَارُض بين النصوص؟ ٢١٢
القاعدة السادسة: درء التَّعَارُض بين النَّقل والعقل: ٢١٧
شهادة العقل بصحة الوحي على الإجمال: ٢١٨
شهادة العقل بصحة الوحي على التفصيل:.. ٢١٩
أقسام العلوم باعتبار موقفها العقل:.. ٢٢٠

قَوَاعِدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَالِ العَقدِيّ (٥) ٢٢٧

تكملة القاعدة السادسة: ٢٢٧
❖مسألةُ إزالةِ التَّعَارُض بين العقل والنَّقل. ٢٢٧
حقيقة قانون التأويل: ٢٢٧
الردُّ على قانون التأويل: ٢٣٠
مُقدِّمات قانون المتكلمين: ٢٣٢
القاعدة السابعة: ظَوَاهِرُ نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّة مفهومَةٌ لدى المُخَاطَبِين بها: ٢٣٤
نصوص العلماء في أهمية التَّمكُّن من العربية: ٢٣٥
❖دعوى وُجودِ ما لا يُفهم معناه في القرآن: ٢٣٨
❖تفسير وجه قصور فهم أهل اللسان والخطاب لبعض ألفاظ الوحي: ٢٤٠

قَوَاعِدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَالِ العَقدِيّ (٦) ٢٤٣

تكملة القاعدة السابعة: ٢٤٣
❖التعريف بالمُفوّضَة: ٢٤٣
❖أصول مذهب المُفوّضَة: ٢٤٥
❖الردُّ على مذهب المُفوّضَة: ٢٤٥
الحكمة من إيراد الحروف المقطعة في القرآن: ٢٤٦
معاني التأويل وموقف المُفوّضَة: ٢٥٠
أكثر القرآن خبرٌ عن الله ولا يمكن أن يكون من المتشابه: ٢٥٥
اللوازم الباطلة لمذهب المُفوّضَة: ٢٥٦

قَوَاعِدُ التَّعَامِلِ مَعَ مَصَادِرِ الاستِدلَالِ العَقدِيّ (٧) ٢٥٨

القاعدة الثامنة: حجّيةُ فهم السلف الصالح لمعاني نصوص الكِتَاب والسنة. ٢٥٨
خيرية الصَّحَابَة وفضلهم على سائر الأمة: ٢٥٩
شواهد فضل الصَّحَابَة على سائر الأمة: ٢٦٠
شواهد حجّية فهم الصَّحَابَة: ٢٦٣

أثر العُجمة على الضلال في فهم النصوص: ٢٦٤
طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم: ٢٦٦
❖خلاصة القاعدة الثامنة: ٢٦٨

فهرس الموضوعات ٢٧٠